إشتراكيّة أمْ فوضويّة؟

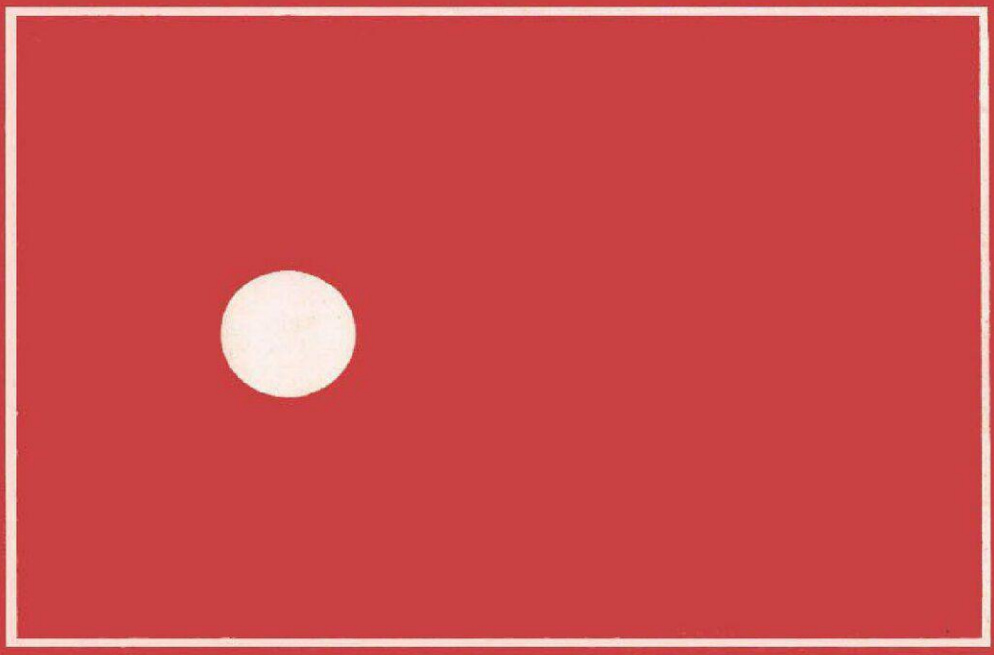

تَرجَمَة : جُورج طَرابيشي

تأليف : جوزيفُ ستالينُ

المكتبة التقدمية

دار الطليعَة - بَيروت

إشتراكية أم فوضوية ؟

هذه ترجمة كتاب

Anarchisme ou
Socialisme
Par
J. Staline
Décembre 1906

حقوق النشر محفوظة
لدار الطليعة ـ بيروت
ص.ب ١١١٨١٣
تلفون ٢٥٧١٧٨

الطبعة الاولى
نيسان (ابريل) ١٩٧٨

جوزيف ستالين

إشتراكية أم فوضوية ؟

ترجمة :
جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

فهرست

تقديم	٥
اشتراكية أم فوضوية	١١
١ ــ المنهج الجدلي	١٦
٢ ــ النظرية المادية	٣٤
٣ ــ الاشتراكية البروليتارية	٥٨

تقـــديم

كتب ستالين هذا النص في عام ١٩٠٦ ، وكان له من العمر سبعة وعشرون عاما . وهو في الواقع اول نـــص نظري هام له . وقد كتبه ردا علـى ف. تشركيزيشفلي ، وهو فوضوي من تلامذة كروبوتكين كانت له بعض الشعبية في جيورجيا يومئذ .

وقد علق ستالين بنفسه في مقدمة وضعها عام ١٩٤٦ للمجلد الاول من اعماله الكاملة ، وهو المجلد الذي يضم ما يمكن ان نسميه بكتابات الشباب ، فقال ان فهم هـــذه النصوص وتقييمها على الوجه الصحيح يقتضي ان نتذكر انها كتبت بين ١٩٠١ و١٩٠٧ ، اي في زمن «لم تكن فيه ايديولوجيا اللينينية وسياستها قد ادركتا نقطة الاكتمال» .

وأضاف يقول انه «لا ينبغي أن ننسى انها من تأليف ماركسي شاب لم يكن قد اصبح بعد ماركسيا ـ لينينيا ناجزا . ولهذا لا عجب ان تبقى فيها آثار من أطروحات قديمة لماركسيين قدامى ، أطروحات طالتها يد الشيخوخة في زمن لاحق ونبذها حزبنا» .

ويخص ستالين بالذكر ، في مقدمة ١٩٤٦ ، نص **اشتراكية ام فوضوية** فيقول ان آثار الاطروحات الماركسية الشائخة تبرز فيه في المسألة المتعلقة بشروط انتصار الثورة الاشتراكية . فكما هو واضح من النص «كان المؤلف يتمسك آنئذ بالاطروحة ، المعروفة جيدا لدى الماركسيين ، القائلة ان احد الشروط الاساسية لانتصار الثورة الاشتراكيةهو ان تشكل البروليتاريا غالبية السكان، بحيث ان الاقطار التي لا تشكل فيها البروليتاريا بعد غالبية السكان ، نظرا الى عدم كفاية التطور الرأسمالي ، يكون فيها انتصار الاشتراكية من المستحيلات .

«وقد كانت هذه الاطروحة تحظى يومئذ على وجه العموم بتأييد الماركسيين الروس ، بمن فيهم البلاشفة ، وكذلك بتأييد الاحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية في الاقطار الاخرى . غير ان التطور اللاحق للرأسمالية في اوروبا وأميركا، والانتقال من الرأسمالية ما قبل الامبريالية الى الرأسمالية الامبريالية ، وأخيرا قانون التطور الاقتصادي والسياسي اللامتكافىء لمختلف الاقطار ـ وهو القانون الذي اكتشفه لينين ـ كل ذلك قد اظهر للعيان ان

تلك الاطروحة ما عادت مطابقة لشروط التطور الجديدة ، وان انتصار الاشتراكية ممكن تماما في أقطـــار لم تدرك فيها الرأسمالية بعد ذروة تطورهـــا ولا تشكل فيهـــا البروليتاريا غالبية السكان، ولكن جبهة الرأسمالية ضعيفة فيها بما فيه الكفاية لاختراقها من قبل البروليتاريا ، على هذا النحو رأت النور ، في ١٩١٥ ــ ١٩١٦ ، النظريـــة اللينينية عن الثورة الاشتراكية . ونقطة انطلاقها ، كما هو معروف ، وجهة النظر القائلة ان الثورة الاشتراكية لـــن تنتصر بالضرورة في الاقطار التي ادركت فيها الرأسماليـة غاية تطورها ، وانما قبل كل شيء حيث تكون جبهتهـــا ضعيفة ، وحيث يكون سهلا على البروليتاريا اختراقها ، وحيث يكون تطور الرأسمالية قد ادرك على اي حال مستوى متوسطا » .

ان هذا النقد ، الذي يوجهه ستالين الشيـــخ الى كتابات ستالين الشاب ، لا يخلو ، على صحته بوجه عام ، من قدر من التزييف. فالنظرية اللينينية عن شروط انتصار الثورة الاشتراكية هي بالفعل واحد من اهم انجازات مـا يمكن تسميته بـ «الطريق الروسي الى الاشتراكية» . ولكن النظرية اللينينية هذه شيء ، والنظرية الستالينية عـــن «الاشتراكية في بلد واحد» شيء آخر . فلينين قال بالفعل ان انتصار الثورة الاشتراكية في أضعف حلقات السلسلة الرأسمالية أمر ممكن تماما ، وهذا ما قدمت عليه روسيا البرهان العملي في عام ١٩١٧ . لكنه قال : انتصار **الثورة**

الاشتراكية ، ولم يقل ـ كما يقوّله ستالين ـ انتصار **الاشتراكية** . والفارق بين الاطروحتين هو كل الفارق ـ باختصار ـ بين اللينينية والستالينية .

ان تحريف الاطروحة اللينينية قد تم على حساب تشويه مريع للنظرية الماركسية وللممارسة الاشتراكية . وهذه المأساة تلخصها المفارقة التالية : ففي الوقت الذي كانت تفترض فيه الماركسية ان الدولة ستتلاشى تدريجيا طردا مع بناء الاشتراكية ، أدى بناء «الاشتراكية في بلد واحد» الى توطيد لا مثيل له في التاريخ للدولة ولاجهزتها القمعية ، والى انسحاق مفجع للفرد امام عنف الدولة المرفوع الى درجة المطلق ، وهذا في الوقت الذي كان يفترض فيه ان تشهد الشخصية الانسانية تفتحا منقطع النظير في ظل حرية وديموقراطية فردوسيتين .

ان المرء لا بد ان ترتسم على شفتيه ابتسامة مشحونة بكل مرارة التاريخ وسخريته حين يقرأ على لسان ستالين الشاب في **اشتراكية ام فوضوية** ان «المجتمع الاشتراكي.. لن يكون فيه مكان لما يسمى بالدولة ، للسلطة السياسية بوزرائها ومحافظيها ودركها وشرطتها وجنودها» .

وبالمقابل ، سيشعر ان الفوضويين الذين دخل معهم ستالين الشاب في مناقشة شاملة كانوا ، على الرغم من تهافت الكثير من آرائهم النظرية ، يتمتعون بنوع من حدس رؤيوي حين ادانوا كل دكتاتورية ، بما فيها دكتاتورية البروليتاريا ، لان «كل دكتاتورية ، مهما تكن نياتها شريفة،

تقود الى موت الثورة» ، وحين حذروا من ان تتحـــول «دكتاتورية البروليتاريا الى دكتاتورية على البروليتاريا» .

وجريمة ستالين تكمن في ان مـا كان من قبـــل الفوضويين مجرد فرية على الماركسية قد صار ، بفضل الممارسة الستالينية ، هو عين الحقيقة .

والحق ان ما من احد اعاد الاعتبار الى تراث الفوضوية ـ والفوضوية هي بالتعريف نفي لكل سلطة ، وعلى الاخص سلطة الدولة ـ كما أعادته اليها التجربة الستالينية التي أوجدت رعبا تاريخيا حقيقيا من كل سلطة تعطي نفسهـــا الحق فيان تنطق باسم التاريخ او البروليتاريا او الفردوس الشيوعي .

ان الوجه الذي يطالعنا به ستالين فـــي **اشتراكية ام فوضوية** هو بلا ادنى ريب وجه مناضل . وجه لا ينبـــىء بحال من الاحوال بـ «الشيخ» الذي سيؤول اليه «الفتى» . والحق ان ستالين **لم يكن** من الاساس «ستالين» ، بل **صار** «ستالين» . وهذا معناه ، رغم أنف التفسير البوليســـي والميتافيزيقي للتاريخ ، ان الستالينية لم تقتحم خشبـــة المسرح كالقدر اليوناني ، بل ولدت ونمت وتوطدت كمحصلة لسيرورة تاريخية .

بيد اننا لا ننكر على نص **اشتراكية ام فوضوية** صفـــة الاستباق في نقطة واحدة على الاقل : فهو يقدم لنا نموذجا مبكرا على عملية «أدلجة» الماركسية ، اي تحويلها الـــى ايديولوجيا مكرسة في النصوص تمهيدا لتكريسها فـــي

الطقوس. والحق ان ستالين يثبت في **اشتراكية ام فوضوية** انه ماركسي «روسي» اكثر منه «جيورجياً» ، وهذا من حيث ان الماركسية الروسية ـ واليوم السوفياتية ـ هي في الجوهر ماركسية ماركس وانجلز عينها ولكن بعد تقنينها ايديولوجياً وضغطها في كبسولات برسم الاستعمال اليومي : في البدء برسم الدعوة ، ومن بعد برسم التبرير. والحال ان ستالين ، يوم كتب هذا النص ، لم يكن الا داعية . ولهذا تعبق سطور نصه بنفحة نضالية لا مراء فيها . وهذه النفحة هي التي تضفي على نص **اشتراكية ام فوضوية** حيوية تاريخية تؤهله لان يكون مقروءا حتى بعد تصرم ربع قرن من الزمن على كتابته .

ج . ط

اشتراكية أم فوضوية

صراع الطبقات هو محور الحياة الاجتماعية المعاصرة . في مجرى هذا الصراع ، تستلهم كل طبقة ايديولوجيتهـــا الخاصة بها . وللبورجوازية ايديولوجيتها : هي ما يسمى **بالليبيرالية** . وللبروليتاريا ايضا ايديولوجيتها : هي ، كما نعلم ، **الاشتراكية** .

ليس في الامكان اعتبار الليبيرالية شيئا كاملا وغـــير قابل للقسمة : فهي تضم اتجاهات شتى تبعا لمختلف شرائح البورجوازية .

والاشتراكية ليست هي الاخرى كاملة او غير قابلـــة للقسمة : فهي تضم بدورها اتجاهات متباينة .

لن نقوم هنا بتحليل الليبيرالية : فخيرا نفعل لو أرجأنا ذلك الى مرة اخرى . انما نحرص فقط على اطلاع القارىء

على كنه الاشتراكية وتياراتها . وفي رأينا ان ذلك قمين بأن يثير المزيد من اهتمامه .

تضم الاشتراكية ثلاثة تيارات رئيسية : **الاصلاحية ، الفوضوية والماركسية .**

فالاصلاحية (برنشتاين وغيره) ، التي لا ترى الى الاشتراكية الا بوصفها هدفا نائيا ، ولا شيء غير ذلك ؛ والتي تنكر عمليا الثورة الاشتراكية وتسعى الى ارساء قواعد الاشتراكية بالطريق السلمي ؛ الاصلاحية التي تبشر لا بصراع الطبقات وانما بتعاونها ـ هذه الاصلاحية تتحلل يوما بعد يوم ؛ تتجرد يوما بعد يوم من كل ظاهر من الاشتراكية ؛ ولا حاجة البتة ، في رأينا ، لتحليلها هنا ، في هذه المقالات ، في معرض تعريفنا للاشتراكية .

اما **الماركسية والفوضوية** فشأنهما غير ذلك: فالاعتراف بهما على انهما كلتيهما تياران اشتراكيان قائم اليوم ، وتدور بين الاثنتين رحى معركة ضارية ، وتريد كل منهما ان تظهر في عيني البروليتاريا مذهبا اشتراكيا أصيلا ؛ وبديهي ان تحليل هذين الاتجاهين ومواجهة احدهما بالآخر امر يحظى بعظيم الاهتمام من جانب القارىء .

نحن لسنا من اولئك الناس الذين يشيحون بوجوههم ازدراء واحتقارا اذا ما ذكرت امامهم كلمة «الفوضوية» ، ويعلنون بلهجة من سئم وكل : «انها اطيبة قلب اكيدة منكم ان تهتموا لها، فهي لا تستحق حتى ان نتكلم عنها !» . اننا نعتقد ان مثل هذا «النقد» الرخيص أمر شائن وعديم

النفع .

كذلك ، نحن لسنا من اولئك الناس الذين يتعـــزون بفكرة ان الفوضويين ، على ما يتصورون ، «لا يتمتعـــون بتأييد الجماهير ، وليسوا بالتالي خطرين الى هذا الحد !» . فليس بيت القصيد اننعرف خلف من تسير اليوم «جماهير» واسعة بقدر او بآخر ، وانما المسألة هي مسألة جوهـــر المذهب . فاذا كان «مذهب» الفوضويين يعبر عن الحقيقة، فلا مرية في انه سيشق حتما لنفسه طريقا ، وسيلمّ حوله شعث الجماهير . لكنه اذا كان متهافتا وقائما على اساس مغلوط ، فلن يطول به المطاف وسيبقى معلقا في الخواء . ان تهافت الفوضوية هو ما ينبغي ان يقام عليه البرهان .

يذهب بعضهم الى ان مبادىء الماركسية والفوضويـة واحدة ، وأنه ليس بين الاثنتين سوى خلافات تكتيكيـــة بحيث يستحيل في نظرهم كل الاستحالة ان يعارض احد هذين التيارين بالآخر .

لكن هذا خطأ فادح .

فنحن نرى ان الفوضويين اعداء حقيقيون للماركسية . وعليه ، فاننا نعترف ايضا بأنه من الواجب شن نضـــال حقيقي ضد اعداء حقيقيين . ينبغي اذن ان نحلل «مذهب» الفوضويين جملة وتفصيلا ، وأن نمحصه الى النهايـــة بمختلف وجوهه .

والحقيقة ان الماركسية والفوضوية تقومان على مبادىء متباينة كل التباين ، وان كانت الاثنتان تدخلان الى الحلبة

شاهرتين الراية الاشتراكية . فحجر الزاوية في الفوضوية هو **الفرد** الذي تذهب الى ان انعتاقه هو الشرط الرئيسي لانعتاق الجمهور ، لانعتاق المجموع . وفي زعم الفوضوية ان انعتاق الجمهور مستحيل ما لم ينعتق الفرد ، ومن هنا كان شعارها : «كل شيء في سبيل الفرد» . بينما حجر الزاوية في الماركسية هو **الجمهور** الذي تذهب الى ان انعتاقه هو الشرط الرئيسي لانعتاق الفرد . اي ان الفرد، بحسب تقدير الماركسية، لا يمكن ان ينعتق ما دام الجمهور لما ينعتق بعد ، ومن هنا كان شعارها : «كل شيء في سبيل الجماهير» .

جلي للعيان اننا نواجه هنا مبدئين ينفي واحدهما الآخر ، لا مجرد خلافات تكتيكية .

وغرض مقالاتنا ان نقارن بين هذين المبدئين المتعارضين، ان نقيم مواجهة بين الماركسية والفوضوية ، وأن نسلط الضوء بالتالي على خصائصهما وعيوبهما . واننا لنرتئي انه لمن المفيد في هذا الصدد ان نطلع القارىء هنا على خطة مقالاتنا .

سنقوم اولا بتقديم تعريف للماركسية ؛ وفي اثناء ذلك سنستذكر وجهة نظر الفوضويين في الماركسية ، ثم سننتقل الى نقد الفوضوية بحصر المعنى . وبغية التوضيح سنعرض المنهج الجدلي ووجهة نظر الفوضويين في هذا المنهج ونقدنا ؛ ثم النظرية المادية ووجهة نظر الفوضويين ونقدنا ؛ وسنتكلم في هذا الصدد عن الثورة الاشتراكية

والدكتاتورية الاشتراكية ، وعن برنامج الحد الادنى ، وبوجه العموم عن التكتيك ؛ ثم سنعرض اشتراكية الفوضويين ونقدنا ، وتكتيك الفوضويين وتنظيمهم ؛ وفي النهاية سنقوم بتثبيت استنتاجاتنا .

وسوف نحاول ان نقيم البرهان على ان الفوضويين ، بوصفهم دعاة لاشتراكية ترتكز الى المشاعات الصغيرة ، ليسوا باشتراكيين أصلاء .

وسوف نحاول ايضا ان نقيم البرهان على ان الفوضويين ، من حيث انهم ينكرون دكتاتورية البروليتاريا، ليسوا كذلك بثوريين أصلا.

والآن ، لنطرق لب موضوعنا .

- ١ -

المنهج الجدلي

«كل شيء في الكون يتحرك ... الحياة تتحول ، القوى الانتاجيـــة تنمو ، العلاقات الاجتماعية القديمة تتهاوى» .

كارل ماركس

ليست الماركسية نظرية الاشتراكية فحسب ؛ بل هي تصور ناجز للعالم ، نظام فلسفي ، منه تنبع بصورة طبيعية اشتراكية ماركس البروليتارية . ويحمل هذا النظـــام

الفلسفي اسم المادية الجدلية .

وعليه ، فان اي عرض للماركسية هو ايضا عرض للمادية الجدلية .

لمَ يحمل هذا النظام اسم المادية الجدلية ؟

لان **منهجه** جدلي ، **ونظريته** مادية .

ما المنهج الجدلي ؟

يقال ان الحياة الاجتماعية هي في حالة حركة وتطور متواصلين . وهذا صحيح : فلا سبيل الى اعتبار الحياة شيئا ساكنا ، ثابتا ؛ فهي لا تتوقف ابدا عند مستوى محدد ؛ وانما هي في حركة دائبة ، وسيرورتها سيرورة دائبة من التدمير والخلق . ولهذا يوجد في الحياة على الدوام **جديد وقديم ، ما ينمو وما يموت** ، العنصر الثوري والعنصر المناهض للثورة .

يجزم المنهج الجدلي بأنه يتوجب علينا ان ننظر الى الحياة في حركتها وأن نطرح السؤال : الى اين تمضي الحياة ؟ لقد رأينا ان الحياة تعرض للانظار مشهدا من التدمير والخلق المتواصلين ؛ فواجبنا اذن ان نرى الى الحياة في تدميرها وخلقها ، وأن نطرح السؤال : ما الذي يُدمر وما الذي يُخلق في الحياة ؟

ما يولد في الحياة وينمو يوما بعد يوم غير قابل للقهر ، ولا سبيل الى ايقاف حركته المندفعة الى امام . اي ان البروليتاريا ، على سبيل المثال ، اذا ما رأت النور كطبقة ونمت وكبرت يوما بعد يوم ، فلا مفر من ان تنتزع راية النصر في خاتمة المطاف حتى وان تكن **اليوم** في غاية

الضعف وفي منتهى القلة عدديا . لماذا ؟ لانها تنمو وتكبر وتتقوى وتمضي قدما الى امام . وبالمقابل ، فان ما يشيخ في الحياة ويجر قدميه الى القبر لا بد من ان يُقهر ، حتى وان كان يمثل **اليوم** قوة جبارة . اي ان البورجوازية ، على سبيل المثال ، اذا ما أحست بالارض تميد تحت قدميها رويدا رويدا وتراجعت القهقرى يوما بعد يوم ، فلا مفر من ان تُقهر في خاتمة المطاف حتى وان تكن اليوم في غاية القوة وفي منتهى الكثرة عدديا . لماذا ؟ لانها ، كطبقة ، تتحلل ، تضعف ، تشيخ ، تمسي عبئا لامجديا في الحياة .

من هنا كانت الاطروحة الجدلية المعروفة : كل ما يوجد في الواقع ، اي كل ما ينمو يوما بعد يوم ، عقلاني ، وكل ما يتحلل يوما بعد يوم لاعقلاني ، ولا مهرب له بالتالي من الهزيمة .

مثال . في الفترة ما بين ١٨٨٠ و١٨٩٠ قامت مساجلة كبرى بين المثقفين الثوريين الروس . فقد زعم الشعبويون ان القوة الرئيسية القادرة على ان تتولى عبء «تحرير روسيا» هي البورجوازية الصغيرة في الريف والمدينة . ولما سألهم الماركسيون : لماذا ؟ اجاب الشعبويون : لان البورجوازية الصغيرة في الريف والمدينة تشكل اليوم الغالبية ؛ فضلا عن انها فقيرة وتحيا في حضيض البؤس .

وكان رد الماركسيين كما يلي : بالفعل، ان البورجوازية الصغيرة في الريف والمدينة تشكل الغالبية اليوم ، وهي

مملقة حقا ، لكن أهذه هي المسألة؟ ان البورجوازية الصغيرة تشكل منذ طويل الآماد الغالبية ، لكنها لم تدلل حتى اليوم ، بدون مساعدة البروليتاريا ، على اي مبادهة في النضال من اجل «الحرية» . لماذا ؟ لان البورجوازية الصغيرة ، كطبقة ، لا تنمو ، بل على العكس ، فهي تتحلل يوما بعد يوم وتنقسم الى بورجوازية والى بروليتاريا . ومن جهة اخرى ، غني عن البيان ان الفقر لا يتسم هنا ، هو الآخر ، بأهمية حاسمة : فالحفاة المعدمون هم أشد فقرا وإدقاعا من البورجوازية الصغيرة ، لكن لا يمكن لاحد ان يقول ان في مستطاعهم اخذ مهمة «تحرير روسيا» على عاتقهم .

كما نرى، ليس المطلوب ان نعرف ما الطبقة التي تشكل اليوم الغالبية ، او ما الطبقة التي هي الاشد فقرا وإدقاعا، وانما ما الطبقة التي تتقوى وتشتد ساعدا وما الطبقة التي تتحلل .

وبما ان البروليتاريا هي الطبقة الوحيدة التي تكبر وتعزز موقعها بلا انقطاع ، والتي تسير بالحياة الاجتماعية قدما الى الامام وتلم حولها شعث جميع العناصر الثورية ، فان واجبنا انتعرف فيها القوة الرئيسية للحركة الراهنة، وأن نلتحق بصفوفها ، وأن نتبنى اتجاهاتها التقدمية .

هكذا يجيب الماركسيون .

لا ريب في ان الماركسيين كانوا يرون الى الحياة جدليا ، بينما كان الشعبويون يحاكمون الامور ميتافيزيقيا،

اذ كانوا يتصورون الحياة الاجتماعية شيئا ساكنا جامدا .

من هذا المنظار ينظر المنهج الجدلي الى تطور الحياة .

بيد ان الحركة على انواع . فقد وجدت حركة في الحياة الاجتماعية اثناء «ايام كانون الاول» (١) ، لحظة هبت البروليتاريا واقفة وراحت تهاجم مستودعات الاسلحة وتتصدى لقراع الرجعية . لكن لا مناص ايضا من ان نطلق صفة الحركة الاجتماعية على حركة السنوات السالفة ، زمن كانت البروليتاريا تكتفي ، في اطار تطور «سلمي» ، باعلان اضرابات محدودة وبانشاء نقابات صغيرة .

من الواضح ان الحركة تتلبس أشكالا شتى .

ويعلمنا المنهج الجدلي ان الحركة تتلبس شكلين : الشكل التطوري والشكل الثوري .

تكون الحركة تطورية متى ما واصلت العناصر التقدمية عملها اليومي بعفوية وتلقائية وأدخلت على وضع الاشياء القديم تغييرات **كمية** طفيفة .

وتكون الحركة ثورية متى ما اتحدت تلك العناصر عينها واعتنقت فكرة مشتركة واندفعت تدك المعسكر المعادي حتى تستأصل شأفة وضع الاشياء القديم وتقتلعه من الجذور ، وحتى تدخل على الحياة تغييرات **كيفية** ، فتخلق وضعا جديدا .

---

١ ــ اشارة الى ثورة ١٩٠٥ . «م»

يمهد التطور السبيل الى الثورة ، ويخلق لها ارضا مناسبة ، بينما تنجز الثورة عمل التطور وتساهم في حركته اللاحقة .

هذه السيرورات عينها تحدث ايضا في حياة الطبيعة. يبين تاريخ العلم ان المنهج الجدلي منهج علمي أصيل : فبدءاً من علم الفلك وانتهاء بعلم الاجتماع ، تتأكد في كل مكان الفكرة القائلة ان ليس في العالم ما هو خالد ، وأن كل شيء يتغير وكل شيء يتطور . وعليه ، لا مناص من ان ننظر الى كل شيء في الطبيعة من وجهة نظر الحركة ، من وجهة نظر التطور . وهذا معناه ان يتغلغل روح الجدل الى العلم الحديث قاطبة .

أما أشكال الحركة ، أما واقعَ ان التغيرات **الكمية** الطفيفة تؤدي في نهاية المطاف ، وطبقا للجدل ، الى تغيرات **كيفية** عظمى ، فان هذا القانون يحتفظ بقيمته كاملة بالنسبة الى تاريخ الطبيعة . ويتجلى بوضوح من «نظام العناصر الدوري» الذي وضعه مندلييف مدى الاهمية التي يتلبسها ، في تاريخ الطبيعة ، واقع ان التغيرات الكيفية تتولد من تغيرات كمية . وتقف شاهدة على ذلك ، في مضمار علم الأحياء ، نظرية اللاماركية الجديدة التي اخذت تحتل مكان الداروينية الجديدة .

ولن نتحدث عن الوقائع الاخرى التي سلط عليها فريدريك انجلز كافي الضوء في مؤلفه **ضد دهرينغ** .

ذلك هو جوهر المنهج الجدلي .

***

ما رأي الفوضويين بالمنهج الجدلي ؟

معلوم ان هيغل هو الاب الروحي للمنهج الجدلي . وقد طهر ماركس هذا المنهج ونقّاه وحسّنه . وغني عن البيان ان هذه الواقعة معروفة بدورها من قبل الفوضويين . فهم يعلمون ان هيغل كان محافظا ، ويغتنمون الفرصة ليهاجموا هيغل بشراسة وليصفوه بأنه من أنصار «عودة الملكية» ؛ و«يقيمون البرهان» بلا لأي على ان

«هيغل فيلسوف من فلاسفة عودة الملكية ... يتغنى بالنزعة الدستورية البيروقراطية في شكلها المطلق ؛ وأن الفكرة العامة لفلسفته في التاريخ مرتهنة بالاتجاه الفلسفي لعهد عودة الملكية وانها تخدمه ، الخ ، الخ (انظر «نوباتي» (١) ، العدد ٦ ، مقال ف. تشركيزيشفلي) .

ان الفوضوي المعروف كروبوتكين «يقيم البرهان» على

---

١ ــ نوباتي (النداء) : صحيفة اسبوعية للفوضويين الجيورجيين. «م»

القضية نفسها في مؤلفاته . (انظر على سبيل المثال كتابه **العلم والفوضوية** باللغة الروسية) .

ان كروبوتكين يحظى بالدعم الاجماعي من اصحابنا الكروبوتكيين ، بدءا من تشركيزيشفلي ووصولا الى ش.غ (انظر أعداد **نوباتي**) .

والحق ان ما من احد يدخل معهم في جدال حول هذه النقطة . بل على العكس من ذلك ، فكل امرىء سيوافق على ان هيغل لم يكن ثوريا . ولقد كان ماركس وانجلز نفسهما قد اقاما البرهان ، قبل اي انسان آخر ، في **نقد النقد النقدي** (١) ، على ان تصورات هيغل التاريخية تناقض كل المناقضة فكرة سيادة الشعب . ومع ذلك «يبرهن» الفوضويون ويحرصون على «البرهنة» يوميا على ان هيغل كان يناصر عودة الملكية . لماذا يفعلون ذلك ؟ في أرجح الظن كي يقللوا من اعتبار هيغل ، وكي يشعروا القارىء بأن «الرجعي» هيغل لا يمكن ان يكون له سوى منهج «بغيض» ومناهض للعلم .

على هذا النحو يخيل للفوضويين أن في مستطاعهم دحض المنهج الجدلي .

---

١ ـ الاسم الثاني لكتاب ماركس وانجلز «الاسرة المقدسة» . والمقصود بجماعة «النقد النقدي» اليسار الهيغلي او الشباب الهيغلي الملتف في ١٨٤٣ حول الاخوين باور . «م»

ونحن نعلن انهم لا يقيمون البرهان ، بهذا الاسلوب ، على اي شيء ، اللهم الا على جهلهم . فباسكال ولايبنز ما كانا ثوريين ، لكن المنهج الرياضي الذي اكتشفاه معترف به اليوم منهجا علميا. وما كان ماير وهلمهولتز ثوريين ، لكن اكتشافاتهما في الفيزياء قدمت سنـــدا وركيزة للعلم . كذلك لم يكن لامارك وداروي ـــن من الثوريين ، بيد ان منهجهما في النشوء والارتقاء أوقف العلم البيولوجي على قدميه ... فلماذا لا يقرون بواقع ان هيغل ، بالرغم من نزعته المحافظة ، امكن له ان ينشىء المنهج العلمي المسمى بالجدلي ؟

كلا، ان الفوضويين لا يقيمون البرهان ، **بذلك الاسلوب**، على أي شيء ، اللهم الا على جهلهم .

لنتابع . يرى الفوضويـــون ان «الجدل هو مـــن الميتافيزياء» ، ولما كانوا «يريدون تخليـــص العلم مـــن الميتافيزياء ، والفلسفة من اللاهوت» ، فانهم يردّون المنهج الجدلي وينبذونه (انظر **نوباني** ، العددين ٣ و٩ ، ش. غ. انظر ايضا **العلم والفوضوية** لكروبوتكين) .

آه من هؤلاء الفوضويين ! ما أشبههـــم بمن يحاول التبرؤ من جريرته بإلقائه تبعتها على جاره ! لقد نضـــج الجدل في **غمار** النضال ضد الميتافيزياء ، وقد كلل هامـــه بالمجد في هذا النضال . لكن الجدل في زعم الفوضويين ضرب من الميتافيزياء !

يؤكد الجدل انه ليس في العالم شيء أبدي ، وأن كل

شيء يمضي ، وكل شيء يتغير : الطبيعة ، المجتمع ، الاخلاق ، العادات ، أفكار العدالة ؛ بل الحقيقة نفسها تتغير ، ولهذا ينظر الجدل الى كل شيء بروح نقدية ؛ لهذا ينكر الحقيقة المقررة مرة واحدة ونهائية ؛ ومن ثم فانه ينكر ايضا المبادىء المجردة ، «المبادىء الدوغمائية القطعية الجاهزة التي لا يبقى على المرء ، بعد اكتشافها ، سوى ان يحفظها عن ظهر قلب» (راجع فريدريك انجلز : **لودفيغ فيورباخ**) .

على أن الميتافيزياء تطالعنا بنقيض ذلك . فالعالم في نظرها شيء أبدي ثابت لا يحول (راجع فريدريك انجلز : **ضد دهرينغ**) ؛ وقد تم تحديده مرة واحدة والى الابد من قبل شخص ما او شيء ما . لهذا تتردد على شفاه الميتافيزيائيين باستمرار كلمات «العدالةالابدية» و«الحقيقة الازلية » .

كان برودون ، «الاب الروحي» للفوضويين ، يقول ان في العالم **عدالة محايثة ، مقررة مرة واحدة ونهائية**، تقضي الضرورة بأن تكون في اساس مجتمع الغد . لهذا سمي برودون ميتافيزيائيا . وقد حارب ماركس برودون بالمنهج الجدلي ؛ فقد اقام البرهان على ان «العدالة» ، نظرا الى ان كل شيء في العالم يتغير ، ينبغي أن تتغير بدورها ، وان «العدالة المحايثة» بالتالي هي محض هذيان ميتافيزيائي . (راجع كارل ماركس : **بؤس الفلسفة**) . لكن التلامذة الجيورجيين للميتافيزيائي برودون يرددون على

أسماعنا بلا انقطاع : «ما جدل ماركس الا ضرب من الميتافيزياء !» .

تعترف الميتافيزياء بعقائد قطعية سديمية شتى ، ومنها ، على سبيل المثال ، «ما لا يعرف» و«الشيء في ذاته» ، وتنحط في نهاية المطاف الى لاهوت أجوف . وعلى نقيض برودون وسبنسر كافح انجلز تلك العقائد القطعية بالمنهج الجدلي . (راجع **لودفيغ فيورباخ**) . لكن الفوضويين ـ تلامذة برودون وسبنسر ـ يقولون لنا ان برودون وسبنسر عالمان ، بينما ماركس وانجلز ميتافيزيائيان !

والامر واحد من اثنين : اما ان الفوضويين يضللون انفسهم ، وإما انهم لا يعرفون ماذا يقولون .

على كل حال ، ثمة شيء واحد اكيد وهو ان الفوضويين يخلطون بين نظام هيغل **الميتافيزيائي** ومنهجه **الجدلي** .

غني عن البيان ان **نظام هيغل الفلسفي** ، المرتكز الى فكرة ثابتة لا تحول ، هو بقضه وقضيضه **ميتافيزيائي** . لكن من الجلي للعيان ايضا ان منهج هيغل الجدلي ، المنكر لكل حقيقة ثابتة لا تحول ، **علمي وثوري** بأكمله .

لهذا كال ماركس الثناء لمنهج هيغل الجدلي في الوقت نفسه الذي اخضع فيه نظامه الميتافيزيائي لصارم النقد . كان ماركس يقول : «لا يمكن لشيء ان يعلو عليه ، لانه في جوهره نقدي وثوري» (راجع **الرأسمال** ، م١ ، التذييل) .

لهذا يستشف انجلز فارقا مرموقا بين منهج هيغل ونظامه .

«من كان يشدد اللهجة على نظام هيغل ، كان يمكن اعتباره بصورة من الصور محافظا في هذين الميدانين كليهما ؛ أما من كان يعتبر بالمقابل ان المنهج الجدلي هو الاساسي ، فكان من الممكن ان ينتمي ، سواء أفي مضمار الدين ام السياسة ، الى المعارضة الاكثر تطرفا» (انظر **لودفيغ فيورباخ**) .

ان الفوضويين لا يرون هذا الفارق ، ويرددون ، بلا تروٍ ، ان «الجدل ضرب من الميتافيزياء» .

لنتابع . يزعم الفوضويون ان المنهج الجدلي «نسيج من المماحكات» ، «منهج للسفسطات» ، «قفزة محفوفة بالمخاطر للمنطق» (انظر **نوباتي** ، العدد ٨ ، ش.غ) ، «منهج يقام البرهان عن طريقه على الكذب والحقيقة بسهولة متعادلة» (انظر **نوباتي** ، العدد ٤ ، مقال ف. تشركيزيشفلي) .

اذن فالمنهج الجدلي يقيم البرهان ، في نظر الفوضويين ، على الحقيقة وعلى الكذب على حد سواء .

للوهلة الاولى قد يبدو الاتهام الذي يطلقه الفوضويون غير مجرد من كل اساس . لنستمع ، على سبيل المثال ، الى ما يقوله انجلز عن نصير المنهج الميتافيزيائي :

«... يقول نعم ، نعم ، لا ، لا ؛ وما تعدى ذلك لا يساوي شروى نقير . في تصوره، ان الشيء

اما ان يوجد ، وإما ألا يوجد ؛ كذلك فان الشيء لا يمكن ان يكون في آن معا هو ذاته وشيئا آخر . فالموجب والسالب متنافيـــان بلا استئناف ...»
(انظر **ضد دهرينغ** ، المدخل) .

هنا يحتدم سخط الفوضويين ويسألون : كيف ذلك ؟ هل يمكن لشيء واحد ان يكون جيدا ورديئا في آن معا ؟ ان هذه «لسفسطة» ، «تلاعب بالالفاظ» ، وهذا معناه انك «تريد ان تقيم البرهان على الحقيقة والكذب بسهولـــة متعادلة» !...

لكن لنشق طريقنا على كل حال الى لب الاشياء .

اننا نطالب اليوم بجمهورية ديموقراطية . فهل فـــي وسعنا القول ان الجمهورية الديموقراطية جيدة من جميع النواحي او سيئة من جميع النواحي ؟ كلا ، لا يسعنا ذلك! لماذا ؟ لان الجمهورية الديموقراطية ليست جيدة الا مـن جانب ، وذلك حينما تقوض النظام الاقطاعي ؛ وبالمقابل ، هي سيئة من جانب آخر ، وذلك حينما تدعم ركائز النظام البورجوازي . وعليه نقول : ان الجمهورية الديموقراطية جيدة بقدر ما تقوض النظام الاقطاعي ، ونحن نناضل فـي سبيلها ؛ لكنها رديئة بقـــدر ما تدعم ركائز النظـــام البورجوازي ، ونحن نناضل ضدها .

يترتب على ذلك ان جمهورية ديموقراطية واحدة متماثلة هي في آن معا «جيدة» و«سيئة» ـ في آن معا «نعـم»

و «لا» .

في وسعنا ان نقول الشيء عينه عن يوم العمل لثماني ساعات : فهو في آن معا «جيد» بقدر ما يعزز مواقع البروليتاريا ، و«سيء» بقدر ما يعزز نظام الأجارة .

ان هذه **الوقائع** هي التي وضعها انجلز نصب عينيه حين حدد ، في العبارة الواردة أعلاه ، المنهج الجدلي .

بيد ان الفوضويين لم يفهموا ذلك ؛ فبدت لهم تلك الفكرة الواضحة كل الوضوح «سفسطة» سديمية .

من المؤكد ان الفوضويين أحرار في ان يلحظوا او ألا يلحظوا **تلك الوقائع** ؛ بل في وسعهم ألا يلحظوا الرمل حتى على شاطىء رملي ، فهذا من حقهم . لكن ليدعوا المنهج الجدلي وشأنه ، لانه ، بخلاف الفوضوية ، لا ينظر الى الحياة بعيون مغمضة ؛ بل يحس بنبض الحياة ويعلن بصريح العبارة : ما دامت الحياة في تغير وحركة ، فان كل ظاهرة من ظاهرات الحياة تنطوي على ميلين : واحدهما موجب والآخر سالب ؛ وعلينا نحن ان نحامي عن الاول وأن نشجب الآخر .

لنتابع ايضا . يرى اصحابنا الفوضويين أن

«التطور الجدلي هو تطور فاجعيّ ، فبه يدمر الماضي اولا نفسه تمام التدمير ، ثم يؤكد المستقبل ذاته باستقلال تام ... ان نكبات كوفييه تنشأ عن اسباب مجهولة ، اما كوارث ماركس وانجلز فناشئة

عن الجدل» (انظر **نوباتي** ، العدد ٨ ، ش.غ) .
وفي مكان آخر يكتب المؤلف عينه :
«ترتكز الماركسية الى الداروينية وتنظر اليها بلا روح نقدية» (انظر **نوباتي** ، العدد ٦) .

ألا أمعنوا النظر في هذا القول !
ان كوفييه ينفي الارتقاء الداروينى ، ولا يعترف بغير النكبات ؛ والحال ان النكبة انفجار **غير متوقع** «ينشأ عن اسباب مجهولة» . ويزعم الفوضويون ان الماركسيين **ينحازون الى كوفييه** ، وانهم **يرفضون بالتالي الداروينية** .
ينفي داروين نكبات كوفييه ، ويقر بالارتقاء المتدرج . فاذا بهؤلاء الفوضويين انفسهم يزعمون ان «الماركسية ترتكز الى الداروينية وتنظر اليها بلا روح نقدية» ، اي ان الماركسيين ينفون **نكبات كوفييه** .
زبدة الكلام ، يتهم الفوضويون الماركسيين بالانحياز الى كوفييه ، ويلومونهم في الوقت نفسه على انحيازهم الى داروين ، لا الى كوفييه .
تلك هي الفوضى ! انها تقدم بنفسها القضبان كيما تضرب بها ! وواضح ان ش.غ العدد ٨ من **نوباتي** قد نسي ما قاله ش.غ في العدد ٦ .

أيهما المحق : العدد ٨ او العدد ٦ ؟
لنستجوب الوقائع . يقول ماركس :

«تدخل قوى المجتمع المادية ، في طور معين من تطورها ، في تناقض مع علاقات الانتاج القائمة ، او ـ وذلك هو محض تعبير حقوقي ـ مع علاقات الملكية ... عندئذ يبدأ عصر الثورة الاجتماعية ... غير ان تشكيلة اجتماعية ما لا تزول ابدا قبل ان تتطور جميع القوى الانتاجية التي في وسعها احتواؤها» (انظر كارل ماركس : **مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي** . المقدمة) .

اذا طبقنا أطروحة ماركس هذه على الحياة الاجتماعية الراهنة، لتبين لنا انه يوجد بين القوى الانتاجية الحديثة، التي لها طابع **اجتماعي** ، وبين شكل تملك المنتجات ، الذي له طابع **خاص** ، تناقض جوهري لا بد ان يفضي الى الثورة الاشتراكية (انظر فريدريك انجلز : **ضد دهرينغ** ، القسم الثالث ، الفصل ٢) .

لا تنشأ الثورة ، كما نرى ، لدى ماركس وانجلز عن «اسباب مجهولة» كتلك التي قال بها كوفييه ، وانما عن اسباب اجتماعية ، حيوية ومحددة تمام التحديد ، تعرف باسم «تطور القوى الانتاجية» .

ومن الواضح انهما من صلة مشتركة بين نكبات كوفييه ومنهج ماركس الجدلي .

من جهة اخرى ، لا ترد الداروينية نكبات كوفييه فحسب ، بل كذلك التطور المفهوم بالمعنى الجدلي الذي يستتبع الثورة ، بينما التطور والثورة ، التغيرات الكمية

والكيفية ، هما ، من وجهة نظر المنهج الجدلي ، شكـــلان ضروريان لحركة واحدة .

من الواضح ايضا انه لا يمكـــن لاحد ان يقـول ان «الماركسية ... تنظر الى الداروينية بلا روح نقدية» .

ينجم عن ذلك ان **نوباتي** تخطىء في كلتا الحالتين ، في العدد ٦ كما في العدد ٨ .

اخيرا يلومنا الفوضويون على ان الجدل ... لا يتيـح الامكانية للخروج او الانبثاق خارج الذات ، ولا للقفز فوق الذات (**نابوتي** ، العدد ٨ ، ش.غ) .

تلك هي ، ايها السادة الفوضويون ، الحقيقة بعينها ؛ هنا الحق معكم ، الحق كله ، ايها المناقضـــون الأجلاّء : فالمنهج الجدلي لا يتيح بالفعل تلك الامكانية . ولماذا ؟ لان «الانبثاق خارج الذات والقفز فوق الذات» هو من شـأن الماعز البري ، بينما جرى خلق المنهج الجدلي برسم بنـي الانسان .

ذلك هو السر كله !...

تلك هي ، بالاجمال ، وجهة نظر الفوضويين بالمنهـــج الجدلي .

من الواضح ان الفوضويين لم يفهمـــوا منهج ماركس وانجلز الجدلي ؛ بل ابتكروا جدلا خاصا بهم ، وهو الذي يحاربونه بمثل تلك الضراوة .

اما نحن ، فلا يبقى علينا الا ان نضحك امام هـــذا المشهد ، اذ لا يستطيع الانسان ان يمسك نفسه عـــن

الضحك حين يشاهد امرأ يقاتل ضد تخيلاته بالـــــذات ويدحض هذياناته الخاصة ويؤكد في الوقت نفسه بحرارة واندفاع انه يصرع الخصم ويجندله .

- ٢ -

النظرية المادية

«ليس وعي البشر هو الـــذي يحدد وجودهم ؛ وانما وجودهـــم الاجتماعي هو الذي يحدد ، علـى العكس ، وعيهم» .

كارل ماركس

بتنا نعرف الان ما المنهج الجدلي .
فما النظرية المادية ؟
كل شيء في العالم يتغير ، كل شيء في الحيـــاة

يتطور ، لكن **كيف يتم** هذا التغير ، وفي **اي شكل** يتحقق هذا التطور ؟

نحن نعلم ، على سبيل المثال ، ان الارض كانت في غابر الازمان كتلة متوهجة ، ثم بردت رويدا رويدا ؛ وبعد ذلك ظهرت النباتات والحيوانات ؛ وبعد ان تطور العالم الحيواني ظهر الى حيز الوجود جنس محدد من القرود ، وفي خاتمة المطاف ظهر الانسان .

هكذا تطورت الطبيعة في خطوطها العريضة .

نحن نعرف ايضا ان الحياة الاجتماعية لم تبق هي الاخرى جامدة . فقد مر زمن كان فيه البشر يحيون في ظل نظام الشيوعية البدائية . ففي ذلك العصر كانوا يتدبرون امر معاشهم بالقنص البدائي ، ويهيمون على وجوههم في الغابات ، ويتزودون منها بالقوت . ثم جاء زمن أخلت فيه الشيوعية البدائية الساح لنظام الامومة ؛ وفي ذلك العهد كان البشر يسدون حاجاتهم بتعاطيهم ، بوجه خاص ، الزراعة البدائية للارض . ثم حل نظام الأبوة محل نظام الامومة ، فصار البشر يقومون بأود حياتهم عن طريق تربية الحيوان في المقام الاول . وفيما بعد ناب نظام العبودية مناب نظام الأبوة ؛ وفي ذلك العهد صار البشر يتدبرون امر معاشهم عن طريق زراعة الارض على نحو اكثر رقيا نسبيا . وأعقب نظام القنانة نظام العبودية، ليعقبه بدوره النظام البورجوازي .

هكذا تطورت الحياة الاجتماعية في خطوطها العريضة.

اجل ، هذا كله معروف ... لكن **كيف** تم هذا التطور : هل الوعي هو الذي أحدث تطور «الطبيعة» و«المجتمع» ، ام ان تطور «الطبيعة» و«المجتمع» هو الذي أحدث ، على العكس ، تطور الوعي ؟

على هذا النحو تطرح النظرية المادية المسألة .

يؤكد بعضهم ان «الطبيعة» و«الحياة الاجتماعية» سبقتهما **فكرة** كونية ، شمولية ، صارت في زمن لاحق بمثابة اساس لتطورهما ، بحيث يغدو تطور ظاهرات «الطبيعة» و«الحياة الاجتماعية» الشكل الخارجي ، اذا صح التعبير ، التعبير المحض عن تطور **الفكرة** الشمولية .

هذا ما كانه ، على سبيل المثال ، مذهب **المثاليين** الذين انقسموا على مر الزمن الى تيارات عدة .

ويؤكد بعضهم الآخر انه وجدت على الدوام في العالم قوتان نافيتان واحدتهما للاخرى ، الفكرة والمادة ، الوعي والكينونة ، وان الظاهرات تنقسم بدورها بحكم ذلك الى سلسلتين ــ مثالية ومادية ــ تتصارعان فيما بينهما وتنفي واحدتهما الاخرى ، بحيث لا يعدو تطور الطبيعة والمجتمع ان يكون صراعا دائما بين الظاهرات المثالية والمادية .

هذا ما كانه ، على سبيل المثال ، مذهب **الثنائيين** الذين توزعوا على مر الزمن ، شأنهم شأن المثاليين ، الى تيارات عدة .

ان النظرية المادية تنفي جذري النفي الثنائية والمثالية سواء بسواء .

صحيح انه توجد في العالم ظاهرات مثاليـة ومادية ، لكن هذا لا يعني بتاتا انها متنافية . بل على العكس مـن ذلك ، فالجانب المثالي والجانب المادي وجهان مختلفـان لطبيعة واحدة او لمجتمع واحد ؛ ولا سبيل الى تصـور واحدهما دون الآخر ، فهما يتواجـدان ، يتعايشان ، يتطوران معا ، ولا نملك بالتالـي اي مسوغ للاعتقـاد بتنافيهما .

هكذا ينكشف للعيان تهافت ما يسمى بالثنائية .

الطبيعة ، الواحدة وغير القابلة للقسمة ، معبرا عنها في شكلين مختلفين ، مادي ومثالي ؛ الحياة الاجتماعية ، الواحدة وغير القابلة للقسمة ، معبرا عنها في شكلين ، مادي ومثالي : هكذا ينبغي ان ننظر الى تطور الطبيعـة والحياة الاجتماعية .

هذه هي واحدية النظرية المادية .

ثم ان النظرية المادية تنفي ايضا المثالية .

فليس صحيحا الاعتقاد بأن الجانب المثالي ، وبوجـه عام الوعي ، يسبق في تطوره تطور الجانب المادي . فحتى قبل ان توجد كائنات حية وجدت طبيعة وصفت بأنهـا خارجية ، «خامدة» . ولم يكن الكائن الحي الاول محبـوا بأي وعي ؛ ولم تكن له من قابلية غير قابليـة **التحسس والادراك الحسي** الجنينية . ثم تطورت رويدا رويدا لدى الحيوانات قابلية الادراك الحسي ، وصارت على مهـل **الوعي** ، وذلك بقدر ما كانت تتطور البنية العضوية لتلـك

الحيوانات وجهازها العصبي . فلو سار القرد على الدوام على اربع من دون ان يقوّم ابدا عموده الفقري ، لما كان أمكن قط للانسان ، سليله ، ان يستخدم بحريـــة رئتيه او حباله الصوتية ؛ ولكان استحال عليه بالتالي ان يستعمل النطق ، الامر الذي كان سيؤخر كل التأخير تطور وعيه. او كذلك : لو لم ينتصب القرد على قائمتيـــه الخلفيتين ، لاضطر الانسان ، سليله ، الى المشي على اربع على الدوام، والى النظر الى الارض ، والى استمداد انطباعاته منها ؛ ولما كانت أتيحت له القدرة على النظر لا الى الاعلـــى ولا حواليه ، ولكان تعذر عليه بالتالي ان يزود دماغه بقدر من الانطباعات والاحساسات اكبر من ذاك المتاح لرباعي القوائم. وكان هذا كله سيؤخر كل التأخير تطور الوعي الانساني .

يترتب على هذا ان تطور الوعي يقتضي هذه البنية او تلك للجهاز العضوي وهذا التطور او ذاك للجهاز العصبي .

ويترتب على ذلك ان تطور الجانب المثالي ، تطـــور الوعي ، **يسبقه** تطور الجانب المادي ، تطـــور الشروط الخارجية : فبادىء ذي بدء تتغير الشروط الخارجيـــة ، الجانب المادي ، **ثم** يتغير بالتالي الوعي ، الجانب المثالي .

هكذا يدحض تاريخ تطور الطبيعة ما يسمى بالمثاليـــة دحضا جذريا .

وينبغي ان نقول الشيء عينه عن تاريخ تطور المجتمـع البشري .

ان التاريخ يبين انه اذا ساورت بني الانسان في حقب

مختلفة أفكار ورغبات مختلفة فهذا لان البشر كانوا في حقب مختلفة يصارعون الطبيعة بصور مختلفة ليتدبروا حاجاتهم ، ولأن علاقاتهم الاقتصادية كانت تكتسي بالتالي طابعا مختلفا . وقد مر زمن كان فيه البشر يصارعون الطبيعة متكافلين متضامنين على اساس الشيوعية البدائية ؛ وفي تلك الآونة كانت ملكيتهم هي الاخرى شيوعية ، ولهذا ما كانوا يميزون تقريبا «لي» عن «لك» ؛ فقد كان وعيهم شيوعيا . ثم جاء زمن تسرب فيه التمييز بين «لي» و«لك» الى الانتاج ؛ وعندئذ اكتست الملكية هي ذاتها طابعا خاصا ، فرديا . ولهذا تغلغل حس الملكية الخاصة في وعي البشر . وهوذا اخيرا الزمن ـ زمننا المعاصر ـ الذي يكتسي فيه الانتاج من جديد طابعا اجتماعيا ؛ وعليه لن تتأخر الملكية بدورها عن ان تتلبس طابعا اجتماعيا ـ ولهذا تتسرب الاشتراكية شيئا فشيئا الى وعي البشر .

اليكم مثالا بسيطا . تخيلوا إسكافيا كان يمتلك مشغلا صغيرا جدا ، لكنه ما لبث ، بحكم عجزه عن الصمود في وجه مزاحمة كبار اهل الحرفة ، ان أغلق مشغله ، ووجد لنفسه ـ لنفترض ذلك ـ عملا بالاجرة في معمل للاحذية في تفليس ، لدى آديلخانوف . لقد اشتغل لدى آديلخانوف لا لكي يصبح عاملا اجيرا دائما ، بل لكي يجمع مالا ويكوّن لنفسه رأسمالا صغيرا ليتمكن ، من ثم ، من اعادة فتح مشغله . ان وضع هذا الاسكافي ، كما نرى ،

قد صار وضعا بروليتاريا ، لكن وعيه لم يصر بروليتارياً **بعد** ، وانما لا يزال بأكمله بورجوازيا صغيرا . وبعبارة اخرى ، ان الوضع البورجوازي الصغير لذلك الاسكافي **قد** تلاشى ولم يعد له وجود ، لكن وعيه البورجوازي الصغير لما يتلاشَ **بعد** ، فهو متأخر عن وضعه الفعلي (١) .

واضح للعيان ههنا ايضا ، اي في الحياة الاجتماعية ، ان الشروط الخارجية ، وضع الانسان ، هي التي تتغير اولا ، ثم يتغير بالتالي وعيه .

لكن لنعد الى إسكافينا . ان في نيته ، كما بتنا نعلم ، ان يجمع مالا كي يعيد فتح مشغله . الاسكافي الذي صار بروليتارياً يعمل اذن ، لكنه سرعان ما يدرك انه من بالغ الصعوبة ان يجمع مالا ، لان أجره لا يكاد يكفيه للقيام بأود حياته . وهو يلاحظ ، فضلا عن ذلك ، أن فتح مشغل خاص ليس بالامر الذي فيه كبير اغراء : فإيجار المحل ، ونزوات الزبائن ، وقلة المال ، ومزاحمة كبار اهل الصنعة، وهموم اخرى كثيرة هي الشغل الشاغل المتسلط على عقل الحرفي . والحال إن البروليتاري اكثر تحررا نسبيا من جميع هذه الهموم : فلا زبون يقلقه ولا ايجار مترتب دفعه يؤرقه ؛ في الصباح يذهب الى المعمل ، وفي المساء يغادره

---

١ ـ استمد ستالين هذا المثال ، في ارجح الظن ، من تجربة والده بالذات . «م»

«بكل راحة بال» ؛ وفي يوم السبت يضع بكل راحة ايضا أجره في جيبه . عندئذ ، وللمرة الاولى ، تمسي الاحلام البورجوازية الصغيرة لإسكافينا مقصوصة الاجنحة . عندئذ ، وللمرة الاولى ، تولد في نفسه ميول بروليتارية.

يمر الزمن ويتضح لإسكافينا ان المال يعوزه حتى ليسد به الرمق ، وأنه بمسيس الحاجة الى زيادة أجره . ويتبين له في الوقت نفسه ان رفاقه يتكلمون عن النقابات والاضرابات . عندئذ يعي إسكافينا ان تحسين وضعه يقتضي النضال ضد أرباب العمل ، لا فتح مشغل لحسابه الخاص . فينتمي الى النقابة ، ويشارك في الحركة الاضرابية ، ولا يلبث ان يعتنق الافكار الاشتراكية ...

هكذا يفضي تغير الوضع المادي للاسكافي ، **في خاتمة المطاف** ، الى تغير في وعيه : لقد تبدل وضعه المادي بادىء ذي بدء ، ثم تبدل بعيد ذلك وعيه بالتالي .

الشيء ذاته ينبغي ان يقال عن الطبقات والمجتمع في مجمله .

ففي الحياة الاجتماعية ايضا تتغير بادىء ذي بدء الشروط الخارجية ، الشروط المادية ، ثم يتغير بالتالي فكر الناس ، أخلاقهم ، عاداتهم ، تصورهم للعالم .

لهذا قال ماركس : **ليس وعي البشر هو الذي يحدد وجودهم ؛ وانما وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد ، على العكس ، وعيهم .**

اذا أطلقنا على الجانب المادي ، على الشروط الخارجية

والوجود وسائر الظاهرات المماثلة اسم **المضمون** ، امكننا ان نطلق على الجانب المثالي ، على الوعي وسائر الظاهرات المماثلة ، اسم **الشكل** . ومن هنا كانت الاطروحة المادية المعروفة : المضمون يسبق الشكل في مجرى التطور ، والشكل يتأخر عن المضمون .

وبما ان التطور الاقتصادي ، طبقا لماركس ، هو «الاساس المادي» للحياة الاجتماعية ، **مضمونها** ، بينما التطور السياسي والحقوقي والفلسفي والديني هو «الشكل الايديولوجي» لهذا المضمون ، «بنيته الفوقية» ، فان ماركس يخلص الى هذا الاستنتاج : **ان تغير الاساس الاقتصادي يطيح بقدر او بآخر من السرعة بكل البنية الفوقية الضخمة .**

هذا لا يعني البتة انه يباح لنا ان نعزو الى ماركس الفكرة القائلة ان المضمون ممكن بدون الشكل ، كما حلم بذلك ش.غ (انظر **نابوتي** ، العدد ١ : **نقد الواحدية**) . فالمضمون بدون الشكل مستحيل ؛ غير ان هذا الشكل او ذاك ، بالنظر الى تأخره عن المضمون ، لا يطابق ابدا **تمام** المطابقة هذا الاخير ، وعلى هذا النحو «يضطر» المضمون الجديد الى ان يتلبس بصورة مؤقتة الشكل القديم ، مما يحدث بينهما نزاعا . ففي الساعة الراهنة ، على سبيل المثال ، لا يتطابق المضمون **الاجتماعي** للانتاج مع شكل تملك الاشياء المصنوعة : فهذا الشكل له طابع **خاص** ، وعلى هذه الارضية يدور «النزاع» الاجتماعي الراهن .

لكن الفكرة القائلة ان الوعي شكل من أشكال الوجود لا تعني البتة ، من جهة اخرى ، ان الوعي هو ايضا ، بحكم طبيعته ، مادة . فما كان يذهب الى مثل هذا المذهب سوى الماديين المبتذلين (بوخنر ومولیشوت على سبيل المثال) الذين تتناقض نظرياتهم جذري التناقض مع مادية ماركس والذين سخر منهم انجلز عن حق في كتابه **لودفيغ فيورباخ** . ان الوعي والوجود ، الفكرة والمادة شكلان مختلفان ، بحسب مادية ماركس ، لظاهرة واحدة تحمل اسما عاما هو الطبيعة او المجتمع . اذن ، ليس واحدهما نفي الثاني (١) ؛ وهما لا يؤلفان من جهة اخرى ظاهرة واحدة . وفي الحقيقة ، وفي مجرى تطور الطبيعة والمجتمع ، يكون الوعي ، اي ما يجري في دماغنا ، مسبوقا بتغير مادي مناظر ، اي بما يجري في خارجنا ، وهو تغير مادي لا مناص من ان يعقبه ، عاجلا او آجلا ، تغير فكري مناظر له .

قد يقول لنا قائل : على رسلكم ، بل لعل ذلك صحيح فيما يتعلق بتاريخ الطبيعة والمجتمع . لكن بأي نحو تولد ،

---

١ ــ هذا لا ينقض البتة فكرة وجود نزاع بين الشكل والمضمون . وفي الحقيقة ، ان هذا النزاع موجود ، ليس بين المضمون والشكل بوجه عام ، وانما بين الشكل القديم والمضمون الجديد الذي يفتش عن شكل جديد وينزع اليه (ج.س) .

في الساعة الراهنة ، في ذهننا الافكار والتصورات المتباينة ؟ وهل للشروط المسماة بالخارجية وجود في الواقع ، ام ان الواقع الوحيد هو تصوراتنا لهذه الشروط الخارجية ؟ واذا كان للشروط الخارجية وجود ، فالى اي حد يمكن ادراكها ومعرفتها ؟

في هذا الصدد تؤكد النظرية المادية ان تصوراتنا و«أنا»نا لا وجود لها الا بقدر ما توجد الشروط الخارجية المولّدة لانطباعات «أنا»نا . ومن يقل ، دونما امعان فكر في ما يقول ، انه لا وجود لشيء خارج تصوراتنا ، يجد نفسه مضطرا الى ان ينكر الشروط الخارجية ، كائنة ما كانت ؛ الى ان ينكر على سبيل المثال وجود أفراد آخرين ، لانه لا يقر بغير وجود «أنا»ه ، وهذا لغو يتناقض كل التناقض مع مبادىء العلم .

لا ريب في ان الشروط الخارجية لها وجودها الفعلي؛ فقد وجدت هذه الشروط قبلنا ، وستوجد من بعدنا ؛ وسيسهل ادراكها ومعرفتها بقدر ما تؤثر بمزيد من التواتر والقوة على وعينا .

اما فيما يتعلق بمسألة معرفة كيفية انبثاق مختلف الافكار والتصورات في رأسنا ، **في الساعة الراهنة** ، فلا بد ان نلاحظ انه يتكرر هنا ، وان على نطاق مختصر ، ما يجري في تاريخ الطبيعة والمجتمع . فهنا ايضا يكون الشيء الموجود في خارجنا سابقا للتصور الذي نتصوره عنه ؛ وهنا ايضا يتأخر تصورنا ، الذي هو الشكل ، عن

الشيء ، عن مضمونه . اذا نظرت ورأيت شجرة ، فهذا يعني بكل بساطة انه قبل ان ينبثق تصور الشجرة في رأسي كانت الشجرة هي نفسها موجودة ، وهي التي ولدت فيّ تصورا مطابقا ...

هذا هو ، باختصار ، مضمون نظرية ماركس المادية .

وسهل علينا ان ندرك اهمية النظرية المادية بالنسبة الى نشاط البشر العملي .

فاذا كانت الشروط الاقتصادية هي التي تتغير **اولا** ، ويتغير **من بعد** على نحو مطابق وعي البشر ، فمن الواضح ان علينا ان نبحث عن تبرير هذا المثل الاعلى او ذاك ، لا في دماغ البشر ولا في مخيلتهم ، وانما في تطور شروطهم الاقتصادية . وما من مثل اعلى صالح ومقبول الا اذا تشكل على اساس دراسة للشروط الاقتصادية . وغير صالحة البتة وغير مقبولة على الاطلاق المثل العليا التي لا تقيم اعتبارا للشروط الاقتصادية والتي لا ترتكز الى تطور هذه الشروط .

ذلك هو الاستنتاج العملي الاول للنظرية المادية .

واذا كان وعي البشر وأعرافهم وعاداتهم تتحدد بالشروط الخارجية ، واذا كان الطابع المعيب للاشكال الحقوقية والسياسية مشروطا بالمضمون الاقتصادي ، فمن الواضح انعلينا ان ننشط في سبيل تغيير جذري للعلاقات الاقتصادية كيما تتغير جذريا ايضا أعراف الشعب وعاداته، وكذلك نظامه السياسي .

هاكم ما قاله كارل ماركس بهذا الخصوص :

«لا حاجة بنا الى لبابة كبيرة حتى نكتشف ان المادية .. ترتبط .. بالاشتراكية . فلئن كان الانسان يستمد كل معرفة واحساس ، الخ ، من العالم المحسوس ... فالمهم في هذه الحال هو تنظيم العالم الاختباري على نحو يمكنه معه ان يختبر فيه وأن يألف كل ما هو انساني حقا ، وأن يمتحن نفسه بصفته انسانا ... ولئن لم يكن الانسان حرا بالمعنى المادي للكلمة ، اي ان يكن حرا لا بالقوة النافية التي تمكنه من تحاشي هذا او ذاك، وانما بالقوة الايجابية التي تتيح له ان يظهر للعيان فرديته الحقيقية ، فلا ينبغي ان نعاقب الجريمة في الفرد، بل ان ندمر المَواطن اللااجتماعية للجريمة.. ولئن تكن الظروف هي التي تكوّن الانسان ، فمن الواجب ان نكوّن الظروف انسانيا» (انظر **لودفيغ فيورباخ** ، الملحق: **ك. ماركس حول المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر**) .

هذا هو الاستنتاج العملي الثاني للنظرية المادية .

فما وجهة نظر الفوضويين في نظرية ماركس وانجلز المادية ؟

اذا كان المنهج الجدلي يرجع في اصله الى هيغل ، فان

النظرية المادية تطوّر الى مواقع اكثر تقدما مادية فيورباخ. ويعلم الفوضويون ذلك حق العلم ، فيعملون على استغلال عيوب هيغل وفيورباخ ليشهّروا بمادية ماركس وانجلز المادية ويقدحوا بها . وقد سبقت لنا الاشارة ، فيما يتعلق بهيغل وبالمنهج الجدلي ، الى ان خدع الفوضويين هذه لا يمكن ان تقيم البرهان على شيء ، اللهم الا على جهلهم بالذات . ومن الواجب ان نقول الشيء نفسه عن تهجماتهم على فيورباخ والنظرية المادية .

يؤكد الفوضويون ، على سبيل المثال ، باعتداد كبير ، ان «فيورباخ كان من أنصار مذهب وحدة الوجود(١) ...»، وأنه «ألّه الانسان» (انظر **نوباتي** ، العدد ٧ ، د. ديلندي)؛ وان «الانسان في اعتقاد فيورباخ هو ما يأكله ...» ؛ وأن ماركس خلص من ذلك الى الاستنتاج التالي : «الشيء الرئيسي اذن، الشيء الجوهري هو الوضع الاقتصادي..» (انظر **نوباتي** ، العدد ٦ ، ش.غ) .

الحق ان ما من احد يماري لا في انتماء فيورباخ الى مذهب وحدة الوجود ، ولا في تأليهه للانسان ، ولا في أخطائه الاخرى المماثلة . بل على العكس من ذلك ، فقد كان

---

١ ــ مذهب يؤكد ان الله والطبيعة شيء واحد ، وان الكون المادي والانسان ليسا الا مظاهر للذات الالهية . ويعرف هذا المذهب ايضا باسم الحلولية والاحدية . «م»

ماركس وانجلز اول من أزاح الستار عن اخطاء فيورباخ . ومع ذلك يرتئي الفوضويون ان من الضروري «التنديد» مرة اخرى بالاخطاء التي سبق التنديد بها . لماذا ؟ على الارجح ، لانهم يريدون بهجومهم على فيورباخ ان يغتابوا بصورة غير مباشرة نظرية ماركس وانجلز المادية . وأغلب الظن اننا لو أنعمنا النظر في الاشياء بلا موقف مسبق لوجدنا بكل تأكيد لدى فيورباخ ، الى جانب الافكار الخاطئة ، أفكارا صحيحة ، شأنه في ذلك شأن العديد من العلماء الآخرين على مر التاريخ . غير ان الفوضويين يواصلون مع ذلك «التنديد» ...

اننا لنعلن من جديد انهم بمثل هذه الاخاديع لن يثبتوا شيئا ، اللهم الا جهلهم بالذات .

ومما يسترعي الاهتمام ان الفوضويين (كما سنتبين ذلك لاحقا) قرروا ان ينقدوا النظرية المادية عن طريق القيل والقال ، من دون ان تكون لهم بها ادنى معرفة . وهذا ما يجعلهم يناقضون بعضهم بعضا في كثير من الاحيان ، بل ان يتكاذبوا ، وهذا يضع «نقادنا» ، بالطبع ، في موقف يبعث على السخرية . فعلى حد قول السيد تشركيزيشفلي ، على سبيل المثال ، كان ماركس وانجلز يكنّان بغضا للمادية الواحدية ، ومن ثم كانت ماديتهما مبتذلة لا واحدية :

«كان علم علماء الطبيعيات الكبير ، مع مذهبه في النشوء والارتقاء ، ومذهبه في التحول ،

ومادیته الواحدية ، التي يكنّ لها انجلز عميـــــق البغضاء ... يتحاشى الجدل، الخ . (انظر **نوباتي**، العدد ٤ ، ف. تشركيزيشفلي) .

يترتب على ذلك ان مادية العلوم الطبيعية ، التـــــي يمحضها تشركيزيشفلي موافقته والتي كان انجلز «يكـــنّ لها البغضاء» ، كانت مادية واحدية : **وعليه** فانها تستأهل ان تمحض الموافقة، بينما مادية ماركس وانجلز غير واحدية، ومن هنا فانها لا تستأهل الاعتراف بها .

ويعلن فوضوي آخر بدوره ان مادية ماركس وانجلـز واحدية ، **ولهذا** تستأهل ان تُردّ وتنبذ .

«ان تصور ماركس التاريخي ردة موروثة عـــن هيغل . فالمادية الواحدية المتصفة بنزعة موضوعية مطلقة، بصفة عامة ، وواحدية ماركس الاقتصادية، بصفة خاصة ، مستحيلتان في الطبيعة ومغلوطتان في النظرية .. والمادية الواحدية هي ثنائية لـــم تنجح في تنكير نفسها ، وتسوية بين الميتافيزيـــاء والعلم ..» (انظر **نابوتي** ، العدد ٦ ش.غ) .

يترتب على ذلك ان المادية الواحدية غير مقبولة ، وان ماركس وانجلز لا يبغضانها ، وانهما هما نفسهما ، علـــى العكس ، ماديان واحديان : لا مندوحة اذن عن نبذ المادية

الواحدية وأطراحها .

واحدهم يصيح حا ، والآخر حي ! فبربكم ، من منهما يقول الحقيقة ! انهما لم يتوصلا بعد الى اتفاق فيما بينهما بصدد مزايا مادية ماركس او عيوبها ؛ ولم يفهما بعد هما نفسهما ان كانت مادية واحدية ام لا ؛ ولم يصلا بعد الى توضيح مسألة معرفة أيهما الاحظى بالقبول : المادية المبتذلة ام المادية الواحدية . لكنهما يصدعان رؤوسنا من الان بحذلقاتهما وتبجحاتهما بأنهما قد صرعا الماركسية وجندلاها !

بلى ، بلى ، اذا واصل السادة الفوضويون بمثل هذه الحميا تهديم تصورات بعضهم بعضا ، فلا يخامرنا شك في ان المستقبل سيكون من نصيبهم ...

ولا يقل هزلا عن كل ما تقدم كون بعض الفوضويين «الذائعي الصيت» لا يعرفون بعد ، بالرغم من «ذيوع صيتهم»، شتى التيارات التي رأت النور في مضمار العلم. تصوروا انهم يجهلون انه توجد في العلم عدة أصناف من المادية ، مع اختلافات كبيرة فيما بينها : فهناك ، على سبيل المثال ، مادية مبتذلة تنفي دور الجانب المثالي وفعله في الجانب المادي ؛ لكن هناك ايضا المادية المسماة بالواحدية ـ نظرية ماركس المادية ـ التي تحلل علميا العلاقات المتبادلة بين الجانب المثالي والجانب المادي . والحال ان الفوضويين **يخلطون** بين هذه الانواع المختلفة من المادية ، بل لا يدركون الفوارق البيّنة القائمة بينها ، ويعلنون في

الوقت نفسه باعتداد لا نظير له : اننا نبعث العلم ونحييه من جديد !

هكذا يعلن ، على سبيل المثال ، **ب. كروبوتكين بثقة** كبيرة في كتاباته«الفلسفية» ان الفوضوية الشيوعية تستند الى «الفلسفة المادية الحديثة» ؛ لكنه لا ينبس بكلمة واحدة ليبين لنا ما «الفلسفة المادية» التي تستند اليها الفوضوية الشيوعية : أهي الفلسفة المادية المبتذلة ام الواحدية ام غير ذلك ؟ انه لا يعرف في أرجح الظن انه يوجد ، بين تيارات المادية ، تناقض جوهري ، ولا يفهم ان الخلط بين هذه التيارات لا يعني «بعث العلم» ، بل يبرهن على جهل مطبق لا اكثر ولا أقل . (انظر كروبوتكين : **العلم والفوضوية** ، وكذلك : **الفوضوية وفلسفتها**) .

والقول نفسه يسري على تلامذة كروبوتكين الجيورجيين. أصغوا السمع :

«في تقدير انجلز ، وكذلك كاوتسكي ، ادى **ماركس للانسانية خدمة جلى بكونه قد ...** [اكتشف ، في ما اكتشف] التصور المادي . أفهذا صحيح ؟ لا نعتقد ذلك ، لاننا نعلم .. ان جميع المؤرخين والعلماء والفلاسفة الذين يأخذون بوجهة النظر القائلة ان الاوالية الاجتماعية تتحرك بفعل الشروط الجغرافية والمناخية الارضية والكونية والانثروبولوجية والبيولوجية هم كلهم ماديون» (انظر **نوباتي ، العدد ٢**) .

يترتب على ذلك انه لا وجود لاي فارق بين «مادية» ارسطو ومادية هولباخ ، او بين «مادية» ماركس ومادية موليشوت ! أجمل به من نقد ! بهذا المتاع من المعارف يعلن هؤلاء الناس عن عزمهم تجديد العلم ! أفلم يصب من قال : «الاسكافي لا يرى الى أعلى من الحذاء !...» .

لنتابع . لقد تناهى الى أسماع فوضويينا «الذائعي الصيت» ان مادية ماركس «نظرية للبطن» ، وهذا بالتحديد ما يأخذونه علينا ، نحن الماركسيين :

«الانسان في نظر فيورباخ هو ما يأكله. وقد كان لهذه الصيغة تأثير سحري على ماركس وانجلز (وهذا ما جعل ماركس يخلص الى الاستنتاج بأن) ما هو رئيسي ، ما هو اساسي ، هو الوضع الاقتصادي، علاقات الانتاج ...» .

وترتيبا على ذلك يلقننا الفوضويون الامثولة تلقينا فلسفيا :

«القول بأن الوسيلة الوحيدة لبلوغ ذلك الهدف (الحياة الاجتماعية) هي الاكل والانتاج الاقتصادي قول مخطىء ... فلو كان **الاكل** والوضع الاقتصادي بوجه خاص هما اللذين يحددان الايديولوجيا كما تزعم الواحدية، لكان بعض النهمين

في هذه الحال من العباقرة» (راجع **نوباتي** ، العدد ٦) .

ألا ما أيسر دحض مادية ماركس وانجلز ! يكفي واحدنا ان يسمع من فم آنسة من نزيلات مدرسة داخلية شائعات زقاقية عن ماركس وانجلز ؛ يكفي واحدنا ان يردد هذه الشائعات برباطة جأش فلسفية على اعمدة **نوباتي** او ما شاكلها ، حتى يستحق للحال لقب «ناقد» الماركسية !

لكن أخبرونا ، ايها السادة ، اين ، متى ، على اي كوكب قال ماركس ان «الاكل يحدد الايديولوجيا» ؟ لماذا لا تأتون بذكر جملة واحدة او كلمة واحدة من كتابات ماركس تأييدا لمزاعمكم ؟ صحيح ان ماركس قال ان وضع البشر الاقتصادي يحدد وعيهم ، ايديولوجيتهم . لكن من قال لكم ان الاكل والوضع الاقتصادي شيء واحد ؟ أتجهلون حقا ان تلك الظاهرة الفيزيولوجية التي هي الاكل ، على سبيل المثال ، تتميز كل التميز عن تلك الظاهرة السوسيولوجية التي هي **الوضع الاقتصادي** للبشر ، على سبيل المثال ؟ ان الخلط بين هاتين الظاهرتين المختلفتين لو صدر ، على سبيل الافتراض ، عن آنسة من نزيلات مدرسة داخلية لكان امرا يغتفر ، لكن كيف امكن لكم ، انتم «مجندلي الاشتراكية ـ الديموقراطية» ، «مجددي العلم» ، ان تقعوا بمثل هذا الطيش في خطأ تلميذات المدارس الداخلية ؟

وكيف يمكن أصلا للاكل ان يحدد الايديولوجيا

الاجتماعية ؟ هيا ، أمعنوا التفكير فيما تقولونه : فالاكل وشكل الاكل لا يتغيران . ففي الماضي ايضا كان بنو الانسان يأكلون طعامهم ويمضغونه ويهضمونه مثلما يفعلون اليوم ، بينما الايديولوجيا تتغير باستمرار . وقد تبدلت الاشكال التي تتلبسها الايديولوجيا من رقية الى اقطاعية الى بورجوازية الى بروليتارية . فهل من المعقول ان يحدد **ما لا يتغير ما يتغير باستمرار ؟**

لنتابع . يرى الفوضويون ان مادية ماركس «هي على الدوام ضرب من التوازي ...» . او ايضا :

«ان المادية الواحدية ثنائية لم يُحسن تنكيرها وتسوية بين الميتافيزياء والعلم ... ويسقط ماركس في الثنائية لانه يصور علاقات الانتاج على انها شيء مادي ، والصبوات الانسانية والارادة على انها وهم ، ويوتوبيا بلا اهمية ، وان تكن موجودة» (راجع **نوباتي** ، العدد ٦) .

اولا ، ان مادية ماركس الواحدية لا تمت بصلة الى نزعة التوازي اللامنطقية . فمن وجهة نظر هذه المادية **يسبق** الجانب المادي ، المضمون ، بالضرورة الجانب المثالي ، الشكل . اما نزعة التوازي فترفض هذه النظرة وتعلن بلهجة جازمة قاطعة انه **لا** الجانب المادي **ولا** الجانب المثالي **يسبق** واحدهما الآخر ، وانهما كليهما يتطوران معا، بالتوازي .

ثانيا ، حتى اذا كان ماركس ، بالفعل ،

«يصور علاقات الانتاج على انها شيء **مادي** ،

والصبوات الانسانية والارادة على انها وهم ويوتوبيا بلا اهمية» ،

فهل معنى ذلك ان ماركس ثنائي النزعة ؟ معلوم ان صاحب النزعة الثنائية يعزو اهمية **متعادلة** الى الجانب المادي والى الجانب المثالي ، بتصورهما على انهما مبدآن متنافيان . لكن اذا كان ماركس، كما تدعون ، يقدم الجانب المادي ولا يعلق ، على العكس ، اهمية على الجانب المثالي باعتباره «يوتوبيا» ، فأين اكتشفتم ، ايها السادة «النقاد»، ثنائية ماركس ؟

ثالثا ، اي صلة يمكن ان تتواجد بين الواحدية المادية وبين الثنائية ، حين يعلم الطفل بالذات ان الواحدية تنطلق من **مبدأ واحد** ــ من الطبيعة او من الوجود الذي له صورة مادية وصورة مثالية ــ بينما تنطلق الثنائية من **مبدئين** ، مادي ومثالي ، ينفي كل منهما الآخر بحسب اعتقاد الثنائية ؟

رابعا ، اين صور ماركس «الصبوات الانسانية والارادة على انها يوتوبيا ووهم»؟ صحيح ان ماركس فسر «الصبوات الانسانية والارادة» بالتطور الاقتصادي ، وصحيح انه كان يصف بالطوباوية صبوات بعض الحالمين المتوحدين حين لا تتطابق مع الوضع الاقتصادي . لكن هل يعني هذا ان الصبوات الانسانية بوجه عام هي ، في نظر ماركس ، طوباوية ؟ وهل هذا بحاجة حقا لان يفسر ؟ ألم تقرؤوا كلمات ماركس :

«لا تطرح الانسانية على نفسها من مشكلات سوى تلك التي هي قادرة على حلها» (راجع مقدمة **المساهمة في نقد الاقتصاد السياسي**) . هذا يعني ان الانسانية ، بصفة عامة ، لا تضع لنفسها اهدافا طوباوية . وواضح ان «ناقدنا» اما انه لا يفهم ما يتحدث عنه وإما انه يزيف الحقائق عن قصد .

خامسا ، من قال لكم ان «الصبوات الانسانية والارادة لا اهمية لها» في نظر ماركس وانجلز ؟ لماذا لا تشيرون الى الموضع الذي يتكلمان فيه عن ذلك ؟ ألا يتكلم ماركس ، في **١٨ برومير لوي بونابرت** وفي **الصراعات الطبقية في فرنسا** وفي **الحرب الاهلية في فرنسا** وفي كراسات اخرى ، عن دور «الصبوات والارادة» ؟ ثم لماذا عمل ماركس على تطوير «ارادة وصبوات» البروليتاريين بالاتجاه الاشتراكي ، ولماذا قام بالدعاية في صفوفهم ، اذا كان لا يعلق اهمية على «الصبوات والارادة» ؟ وكذلك ، عمَ يتكلم انجلز في مقالاته المعروفة التي كتبها في أعوام ١٨٩١ ـ ١٨٩٤ ، ان لم يكن عن «اهمية الارادة والصبوات» ؟ صحيح ان «ارادة وصبوات» الناس تستمد مضمونها في تقدير ماركس من الشروط الاقتصادية . ولكن هل يعني هذا انها لا تمارس بدورها اي تأثير على تطور العلاقات الاقتصادية ؟ وهل يلاقي الفوضويون مشقة كبيرة حقا في تفهم هذه الفكرة البالغة البساطة ؟

وهي ذي «تهمة» اخرى يطلقها السادة الفوضويون :

«لا يمكن تصور الشكل بدون المضمون» ، وعليه لا يمكن القول ان «الشكل **يتبع** المضمون [يتأخر عن المضمون . ج.س] .. فهما «يتعايشان» ... واذا قالت الواحدية عكس ذلك ، فلغو هي » (انظر **نوباتي** ، العدد ١ ، ش.غ) .

هوذا «عالمنا» يقع من جديد في حيص بيص . فأما ان المضمون غير قابل للتصور بدون الشكل ، فهذا صحيح . لكن صحيح ايضا بالقدر نفسه ان **الشكل الموجود** لا يتطابق ابدا تمام التطابق **والمضمون الموجود** : فالاول يتأخر عن الثاني ؛ والمضمون الجديد يتلبس على الدوام ، الى حد ما، الشكل القديم ، مما يؤدي على الدوام الى نشوب نزاع بين الشكل القديم والمضمون الجديد . وعلى هذا الصعيد تحدث الثورات ، وهنا على وجه التحديد يظهر للعيان ، في ما يظهر ، الروح الثورية لمادية ماركس . غير ان الفوضويين «الذائعي الصيت» لم يفهموا ذلك ، وبديهي ان تبعة ذلك تقع عليهم هم انفسهم ، لا على النظرية المادية .

هذه هي وجهة نظر الفوضويين في نظرية ماركس وانجلز المادية ، هذا اذا جاز لنا ان نسميها وجهة نظر .

- ٣ -

الاشتراكية البروليتارية

بتنا نعرف الان مذهب ماركس : نعرف **منهجه** ، كما نعرف **نظريته** .

فما الاستنتاجات العملية التي ينبغي استخلاصها من هذا المذهب ؟

وما الصلة القائمة بين المادية الجدلية والاشتراكية البروليتارية ؟

ينص المنهج الجدلي على ان الطبقة الوحيدة التي يمكن ان تكون تقدمية حتى النهاية ، الطبقة الوحيدة التي يسعها ان تحطم نير العبودية ، هي الطبقة التي تكبر يوما بعد يوم،

التي تمضي على الدوام قدما الى الامام وتقاتل بلا سأم او كلل في سبيل مستقبل افضل . واننا لنرى بأم أعيننا ان الطبقة الوحيدة التي تتطور باستمرار ، والتي تمضي على الدوام قدما الى الامام وتقاتل في سبيل المستقبل ، هي بروليتاريا المدن والارياف . علينا اذن ان نضع انفسنا في خدمة البروليتاريا وأن نعقد عليها آمالنا .

هذا هو الاستنتاج العملي الاول الذي ينبغي استخلاصه من مذهب ماركس .

لكن الخدمة على انواع . فبرنشتاين «يخدم» هو الآخر البروليتاريا حين يعظ داعيا الى تناسي الاشتراكية . وكروبوتكين «يخدم» هو الآخر البروليتاريا حين يعرض عليها «اشتراكية» مشاعية مشتتة ، تفتقد الى قاعدة صناعية عريضة . وكارل ماركس يخدم هو الآخر البروليتاريا حين يدعوها الى الاشتراكية البروليتارية التي ترتكز الى القاعدة العريضة للصناعة الكبيرة الحديثة .

ماذا ينبغي علينا ان نفعل حتى يأتي عملنا نافعا للبروليتاريا ؟ وكيف يتوجب علينا ان نخدم البروليتاريا ؟

تنص النظرية المادية على ان هذا المثل الاعلى او ذاك لا يمكن ان يكون مفيدا للبروليتاريا حقا الا اذا لم يكن هذا المثل الاعلى منافيا لتطور البلاد الاقتصادي ، وإلا اذا كان يستجيب من جميع النواحي لمتطلبات هذا التطور . ويدل التطور الاقتصادي للنظام الرأسمالي على ان الانتاج الحديث يأخذ طابعا اجتماعيا وأن الطابع الاجتماعي للانتاج ينفي

جذريا الملكية الرأسمالية القائمة . وعليه ، ان مهمتنا الرئيسية هي المساهمة في الغاء الملكية الرأسمالية وفي اقامة الملكية الاشتراكية . هذا يعني ان نظرية برنشتاين ، التي تدعو الى تناسي الاشتراكية، تناقض جوهريا متطلبات التطور الاقتصادي ؛ ولن تكون بالتالي الا ضارة بالبروليتاريا .

يدل التطور الاقتصادي للنظام الرأسمالي بعد ذلك على ان الانتاج الحديث يتوسع اكثر فأكثر يوما فيوما ، وانه ما عاد محصورا في اطار مدن او اقاليم محدودة ، وأنه ينسف باستمرار هذا الاطار ويمتد الى اراضي الدولة بتمامها . وعليه ، يجب ان نهلل لتوسع الانتاج وأن نقبل كقاعدة لاشتراكية الغد لا مدناً وكومونات معدودة ، بل اراضي الدولة بتمامها ، دونما تجزئة ولا قسمة ، مع التسليم بأنها ستمتد وستتوسع اكثر فأكثر في المستقبل. هذا يعني ان نظرية كروبوتكين ، التي تحصر اشتراكية الغد في اطار مدن وكومونات معدودة ، تتنافى والتوسع المنشيط للانتاج ؛ ولن تكون بالتالي الا ضارة بالبروليتاريا.

أن نناضل في سبيل حياة اشتراكية **واسعة** ، كهدف **رئيسي** : هكذا يفترض بنا ان نخدم البروليتاريا .

هذا هو الاستنتاج العملي الثاني الذي ينبغي استخلاصه من مذهب ماركس .

من الواضح ان الاشتراكية البروليتارية تنبع مباشرة من المادية الجدلية .

ما الاشتراكية البروليتارية ؟

ان النظام الحالي رأسمالي . هذا يعني ان العالم منقسم الى معسكرين متعاكسين ، عالم حفنة ضئيلة من الرأسماليين وعالم الغالبية : البروليتاريين . ويعمل هؤلاء الاخيرون ليل نهار ، لكنهم يلبثون مع ذلك على فقرهم مقيمين . اما الرأسماليون فلا يعملون ، ولكنهم يبقون مع ذلك اغنياء. ولا يعود السبب في ذلك الى ان البروليتاريين ينقصهم الذكاء ، بينما يطفح الرأسماليون عبقرية ، وانما الى ان الرأسماليين يضعون اليد على ثمرة عمل البروليتاريين ، والى ان الرأسماليين يستغلون البروليتاريين .

لماذا يضع الرأسماليون اليد على ثمرة عمل البروليتاريين ، وليس البروليتاريون هم الذين يفعلون ذلك ؟ لماذا يستغل الرأسماليون البروليتاريين ، وليس العكس ؟

لان النظام الرأسمالي يقوم على اساس الانتاج البضاعي: فكل شيء يأخذ هنا شكل بضاعة ، وفي كل مكان يسود مبدأ الشراء والبيع . ففي وسعكم ان تشتروا لا السلع الاستهلاكية والاغذية فحسب ، بل كذلك قوة عمل الناس، دمهم ، وجدانهم . الرأسماليون يعرفون ذلك كله ، ويشترون قوة عمل البروليتاريين ، يستأجرونهم . هذا يعني انهم يصبحون سادة قوة العمل التي يشترونها . اما البروليتاريون فيفقدون كل حق في قوة العمل التي

باعوها . اي ان نتاج قوة العمـــل هذه لا يعود ملكـــا للبروليتاريين، بل ملكا فقط للرأسماليين الذين يستحوذون على ذلك النتاج . وقد يحدث ان تنتج قوة العمل التـــي بعتها بضائع بقيمة مئة روبل في اليوم ، لكن هذا لا يعنيك ولا يخصك ، بل هو يعني فقط الرأسماليين ويخصهم ؛ اما انت فما عليك الا ان تقبض أجرك اليومي الذي قد يكفيـك لسد حاجاتك الفورية ، هذا اذا كنت تعيش بالطبع حياة مقتصدة . زبدة الكلام ، يشتري الرأسماليون قوة عمـل البروليتاريين ، يستأجرونهم ، ولهذا يضعون اليد علـــى ثمرة عمل البروليتاريين ، ولهذا فانهم هم الذين يستغلون البروليتاريين ؛ وليس العكس .

لكن لمَ كان الرأسماليون تحديدا هم الذين يشتـرون قوة عمل البروليتاريين ؟ لـمَ يستأجر الرأسماليـــون البروليتاريون ، وليس العكس ؟

لان المبدأ الاساسي للنظام الرأسمالي هو الملكية الخاصة لادوات الانتاج ووسائله . لان المعامل والمصانـــع والارض وباطن الارض والغابات والسكك الحديدية والآلات وسائـر وسائل الانتاج قد أضحت ملكية خاصة لحفنة ضئيلة من الرأسماليين . لان البروليتاريين محرومون من هذا كله . لهذا السبب يستأجر الرأسماليون البروليتاريون ليسيّروا المعامل والمصانع، وإلا ما أمكنهم ان يجنوا اي ربح من ادواتهم ووسائلهم الانتاجية . لهذا السبب يبيع البروليتاريون قوة عملهم للرأسماليين ، وإلا لماتوا جوعا .

تبرز جميع هذه الوقائع للعيان الطابع العام للانتـــاج الرأسمالي . فغني عن البيان ، اولا ، ان الانتاج الرأسمالي لا يمكن ان يكون موحدا ومنظما : فهو بكامله مجزأ الـــى مشاريع خاصة يملكها هؤلاء الرأسماليون او اولئك . ومن الواضح ، ثانيا ، ان الهدف المباشر لهذا الانتاج المجزأ ليس تلبية حاجات السكان ، بل انتاج بضائع برسم البيع ، بغية زيادة أرباح الرأسماليين . لكن بما ان كل رأسمالي يسعى الى زيادة أرباحه ، فان كل واحد منهم يحرص على انتاج اكبر قدر ممكن من البضائع ، مما يؤدي الى اشباع السوق بسرعة ، والى انخفاض اسعار البضائع ــ وعندئذ تطـــرأ ازمة عامة .

هكذا نرى ان الازمات والبطالة وايقاف الانتاج وفوضى الانتاج ، الخ ، هي النتيجة المباشرة للطابع غير المنظم للانتاج الرأسمالي الحديث .

ولئن لم يتقوض هذا النظام الاجتماعي غير المنظم الى الان ، ولئن لبث يقاوم بقوة هجمات البروليتاريا ، فتفسير ذلك يكمن قبل كل شيء في دفاع الدولة الرأسمالية عنه وفي حماية الحكومة الرأسمالية له .

هذا هو اساس المجتمع الرأسمالي الحديث .

***

ليس ثمة من شك في ان مجتمع الغد سيقوم علـــى

اساس مغاير .

فمجتمع الغد سيكون مجتمعا اشتراكيا . هذا يعني قبل كل شيء انه لن يعود هناك وجود للطبقات : فلن يكون هناك لا رأسماليون ولا بروليتاريون ، ولا استغلال بالتالي. لن يكون هناك سوى شغيلة يوحد بينهم شغل جماعي .

مجتمع الغد سيكون مجتمعا اشتراكيا . هذا يعني ايضا انه سيلتغي ، مع الغاء الاستغلال ، الانتاج البضاعي والبيع والشراء . فلا يعود هناك من مكان لشراة قوة العمل وباعتها ، لأرباب العمل والاجراء . لن يعود هناك سوى شغيلة احرار .

مجتمع الغد سيكون مجتمعا اشتراكيا . هذا يعني ، اخيرا ، انه ستلتغي ، مع الغاء العمل المأجور ، كل ملكية خاصة لأدوات الانتاج ووسائله ؛ فلن يعود هناك لا بروليتاريون فقراء ولا رأسماليون ؛ وانما فقط شغيلة يملكون بالتشارك الارض كلها وباطن الارض، والغابات طرا، والمعامل والمصانع كافة ، والسكك الحديدية جميعا ، الخ .

ان الهدف الرئيسي لانتاج الغد ، كما نرى ، هو التلبية المباشرة لحاجات المجتمع ، لا انتاج بضائع برسم البيع بغية زيادة أرباح الرأسماليين . وهكذا لن يعود هناك من مكان للانتاج البضاعي ، وللصراع من اجل الربح ، الخ .

من الواضح ايضا ان انتاج الغد سينظم وفق النمط الاشتراكي : فسيكون انتاجا متطورا الى اقصى حد ، يأخذ

بعين الاعتبار حاجات المجتمع وينتج بدقة الكمية اللازمة للمجتمع . ولن يعود هناك من مكان لا للانتاج المشتت ، ولا للمزاحمة ، ولا للأزمات ، ولا للبطالة .

حيثما لا يكون من وجود للطبقات ، وحيثما لا يكون من وجود للاغنياء والفقراء ، تغدو الدولة غير ذات جدوى ، وغير ذات جدوى ايضا السلطة السياسية التي تقمع الفقراء وتحمي الاغنياء . وعليه ، لن يكون المجتمع الاشتراكي بحاجة الى الابقاء على السلطة السياسية .

لهذا السبب قال كارل ماركس منذ عام ١٨٤٦ :

«سوف تُحِلّ الطبقة الكادحة ، في مجرى تطورها ، محل المجتمع المدني القديم متحدا يقصي جانبا الطبقات وتناحرها ، فلا يعود ثمة وجود لسلطة سياسية بحصر معنى الكلمة» (انظر **بؤس الفلسفة**) .

ولهذا السبب قال انجلز في عام ١٨٨٤ :

«اذن فالدولة لم توجد في كل آن وزمان ، بل وجدت مجتمعات استغنت عنها ، ولم يكن لديها اي فكرة عن الدولة او سلطة الدولة . وفي درجة معينة من التطور الاقتصادي ، استوجبت حكما انقسام المجتمع الى طبقات ، اضحت الدولة ...

ضرورة. ونحن نقترب اليوم بخطى حثيثة من درجة من تطور الانتاج كف معها وجود هذه الطبقات عن ان يكون ضرورة وأمسى عائقا مباشرا امام الانتاج. ان الطبقات ستزول بمثل الحتمية التي ظهرت بها. وبزوال الطبقات ستزول لا محالة الدولة. والمجتمع ، الذي سيعيد تنظيم الانتاج على اساس التشارك الحر والمتساوي للمنتجين ، سيحيل آلة الدولة الى المحل الذي تستأهله : الى متحف الآثار القديمة جنبا الى جنب مع دولاب الغزل والفأس البرونزية» (انظر **أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة**) .

غني عن البيان ، من جهة اخرى، ان المجتمع الاشتراكي سيكون بحاجة ، كيما يصرف الشؤون العامة ، علاوة على المكاتب المحلية التي ستتركز فيها مختلف المعلومات ، الى مكتب مركزي للاحصاء يقوم بالاستعلام عن حاجات المجتمع بكامله ليوزع من ثم ، بالكيفية المناسبة ، مختلف الوظائف والاستخدامات بين الشغيلة . كما ستكون هناك حاجة الى عقد مشارات ، وبخاصة مؤتمرات ، تكون قراراتها ، الى حين المؤتمر التالي ، ملزمة قطعا للرفاق الذين لم يقفوا الى جانب الاكثرية .

من الواضح ، اخيرا ، ان العمل الحر والاخوي في مجتمع الغد الاشتراكي سيستتبع تلبية اخوية وكاملة ايضا

للحاجات قاطبة . هذا يعني انه اذا ما طلب مجتمع الغد من كل عضو من اعضائه القدر الذي بوسعه تقديمه من العمل، فان المجتمع سيكون ملزما بدوره بأن يقدم لكل واحد كمية المنتجات التي يحتاجها . من كل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته ! ذلك هو الاساس الذي يجب ان يبنى عليه نظام الغد الجماعي . صحيح ان تطبيق مبدأ «لكل حسب حاجاته» سيكون بلا ادنى ريب صعبا للغاية في الطور **الاول** من الاشتراكية ، يوم ستنصاع العناصر غير المتعودة على العمل للحياة الجديدة ، ويوم لن تكون القوى الانتاجية قد تطورت بعد بما فيه الكفاية ، وأخيرا يوم يكون العمل ما يزال منقسما الى عمل «مضنٍ» وعمل «سهل» ؛ وعليه سيجد المجتمع نفسه مضطرا الى ان يسلك **بصورة مؤقتة** طريقا آخر ، طريقا أوسط . لكن من المؤكد ايضا انه يوم يكون مجتمع الغد قد حفر سريره وتم استئصال بقايا الرأسمالية من شأفتها ، فان المبدأ الوحيد المتناغم مع المجتمع الاشتراكي سيكون المبدأ الآنف الذكر .

قال ماركس في عام ١٨٧٥ :

«في طور أعلى من المجتمع الشيوعي [اي من المجتمع الاشتراكي] ، يوم تزول تبعية الافراد المهينة لتقسيم العمل ، ويزول معها التعارض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ؛ يوم لن يعود العمل مجرد وسيلة للعيش ، بل يضحي هو ذاته الحاجة

الحيوية الاولى ؛ يوم تنمو وتعظم ، بالتوازي مع التطور المتعدد الوجوه للافراد ، القوى الانتاجية هي الاخرى ... يومئذ فقط يمكن تجاوز الافق المحدود للحق البورجوازي بصورة نهائية ، ويغدو في مستطاع المجتمع ان ينقش على رايته : «من كل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته» (انظر **نقد برنامج غوتا**) .

تلك هي ، في خطوطها الكبرى ، صورة مجتمع الغد الاشتراكي تبعا لنظرية ماركس .

حسنا جدا . لكن هل تحقيق الاشتراكية ممكن التصور ؟ هل يسعنا الافتراض بأن الانسان سيعرف كيف يتحرر من إسار «عاداته كمتوحش» ؟

او كذلك : اذا كان كل واحد سيأخذ حسب حاجاته ، فهل نستطيع ان نفترض ان مستوى القوى الانتاجية في المجتمع الاشتراكي سيكون كافيا لتحقيق ذلك ؟

يفترض المجتمع الاشتراكي قوى انتاجية متطورة بما فيه الكفاية ، كما يفترض وعيا اشتراكيا وتربية اشتراكية للناس . وما يعيق تطور القوى الانتاجية الحالية هو الملكية الرأسمالية القائمة . لكن اذا اخذنا بعين الاعتبار ان هذه الملكية لن يكون لها من وجود في مجتمع الغد، فمن الواضح ان القوى الانتاجية ستتضاعف عشر مرات . كذلك لا ينبغي ان ننسى ان مئات الآلاف من الطفيليين الحاليين ومن

العاطلين عن العمل سينصرفون في مجتمع الغد الى العمل، وسينضمون الى صفوف الشغيلة ، مما سيساهم على نحو محسوس في تطور القوى الانتاجية . اما فيما يتعلق بتصورات الناس ومشاعرهم «المتوحشة» ، فلنقل انها ليست خالدة الى الحد الذي يتصوره بعضهم : فقد مر زمن ، زمن الشيوعية البدائية ، ما كان الفرد يعرف فيه الملكية الخاصة ؛ ثم جاء زمن الانتاج الفردي فاستحوذت الملكية الخاصة على مشاعر الناس وأذهانهم ؛ وها يأتي الان زمن جديد ، زمن الانتاج الاشتراكي ـ فهل من داع اذن لان تأخذنا الدهشة اذا ما تشربت مشاعر الناس وعقولهم بالميول الاشتراكية ؟ أفليس الوجود هو الذي يحدد «مشاعر» الناس وتصوراتهم ؟

لكن اين هي الادلة على ان النظام الاشتراكي سيشق طريقه الى الوجود لا محالة ؟ وهل ستعقب الاشتراكية حتما تطور الرأسمالية الحديثة ؟ بعبارة اخرى : من اين لنا الثقة بأن اشتراكية ماركس البروليتارية تتعدى كونها مجرد حلم لذيذ ، مجرد تخيل ؟ ما الادلة العلمية التي نملكها عليها ؟

يدل التاريخ على ان شكل الملكية يتعلق مباشرة بشكل الانتاج ، مما يحتم ان يتغير عاجلا او آجلا شكل الملكية مع تغير شكل الانتاج . فلقد مر زمن كان فيه للملكية طابع شيوعي ، وكانت فيه الغابات والحقول ، التي كان يهيم فيها البشر البدائيون على وجوههم ، ملكا للناس قاطبة ، لا

لأفراد بعينهم . لماذا كانت الملكية الشيوعية موجودة يومئذ؟ لان الانتاج كان شيوعيا ، كان العمل يتم تشاركيا، جماعيا: كان الجميع يعملون معا وما كان في وسع احد ان يستغني عن احد . ثم جاء زمن آخر ، زمن الانتاج البورجوازي الصغير ، حيث اتخذت الملكية طابعا فردويا (خاصا) وحيث جرى الاعتراف بكل ما هو ضروري للانسان (باستثناء الهواء والضوء والشمس ، الخ) ملكية خاصة . لمَ حدث هذا التغير ؟ لان كل انسان صار يعمل لحسابه الخاص ، وقد تقوقع في ركنه الخاص به ، بعد ان صار الانتاج فردويا . وأخيرا جاء زمن الانتاج الرأسمالي الكبير ، حيث يحتشد مئات العمال وآلافهم تحت سقف واحد ، في معمل واحد ، وينجزون عملهم تشاركيا . هنا لم يعد ثمة وجود لعمل منفرد ، للاسلوب القديم ، كما في الزمن الذي كان فيه كل واحد يشد الحبل من ناحيته . هنا يرتبط كل عامل وجميع عمال كل ورشة وثيق الارتباط برفاقهم في الورشة وبرفاقهم في سائر الورشات برباط العمل . ويكفي ان تتوقف ورشة من الورشات حتى يبقى عمال المعمل كله بلا عمل . وكما نرى ، اخذ شكل الانتاج ، العمل ، من الان طابعا اجتماعيا ، واكتسب مظهرا اشتراكيا . وذلك هو الحال لا في كل معمل فحسب ، بل ايضا في قطاعات بكاملها وبين شتى قطاعات الانتاج : يكفي ان يضرب عمال السكك الحديدية عن العمل حتى يواجه الانتاج موقفا صعبا ؛ ويكفي ان يتوقف انتاج البترول او

الفحم حتى توصد معامل ومصانع بكاملها ابوابها بعد ذلك بزمن وجيز . من الواضح ان سيرورة الانتاج اخذت هنا طابعا اجتماعيا ، جماعيا . وبما ان الطابع الخاص للتملك ما عاد يوافق الطابع الاجتماعي للانتاج . وبما ان العمل الجماعي المعاصر لا بد ان يفضي حتما الى الملكية الجماعية، فمن البديهي ان يعقب النظام الاشتراكي الرأسمالية بمثل الحتمية التي يعقب بها النهار الليل .

هكذا يبرر التاريخ حتمية اشتراكية ماركس البروليتارية .

* * *

ينبئنا التاريخ ان الطبقة او الفئة الاجتماعية التي تلعب الدور الرئيسي فيالانتاج الاجتماعي وتمسك بوظائفه الرئيسية ، لا بد ان تصبح بمرور الزمن سيدة هذا الانتاج، لا محالة . وقد مر زمن ــ النظام الامومي ــ كانت فيه النساء سيدات الانتاج . ما تفسير ذلك ؟ لان النساء كن يلعبن في انتاج ذلك الزمن ، اي في الزراعة البدائية ، الدور الرئيسي ، وكن يمارسن الوظائف الرئيسية ، بينما كان الرجال يسرحون في الغابات طلبا للطرائد . ثم جاء زمن نظام الأبوة ، فشغل الرجال وضعا مهيمنا في الانتاج. لمَ طرأ هذا التغير ؟ لان الدور الرئيسي في انتاج ذلك الزمن ، اي الاقتصاد القائم على تربية الحيوان ، الذي

كانت فيه ادوات الانتاج الرئيسية هي المزراق والوهق [1] والقوس والنشاب ، كان يعود الى الرجال ... ثم جاء زمن الانتاج الرأسمالي الكبير، حيث شرع البروليتاريون يقومون بالدور الرئيسي في الانتاج ، وحيث انتقلت الى أيديهم جميع الوظائف الرئيسية في مضمار الانتاج ، وحيث لا يمكن للانتاج بدونهم ان يستمر يوما واحدا (لنتذكر الاضرابات العامة) ، وحيث يغدو الرأسماليون عقبة امام الانتاج بدل ان يكونوا ضروريين له . ما يعني هذا ؟ يعني هذا اما ان الحياة الاجتماعية ستتدمر بأسرها ، وإما ان البروليتاريا ستغدو عاجلا او آجلا ، لكن لا محالة ، سيدة الانتاج الحديث ، مالكه الوحيد ، مالكه الاشتراكي .

ان الازمات الصناعية الراهنة ، التي تقرع ناقوس الملكية الرأسمالية وتطرح في الوقت نفسه مسألة **إما** الرأسمالية **وإما** الاشتراكية ، تجعل مثل تلك النتيجة بحكم البديهية وتظهر للعيان بجلاء طفيلية الرأسماليين وحتمية انتصار الاشتراكية .

على هذا النحو يبرر التاريخ ايضا حتمية اشتراكية ماركس البروليتارية .

ان الاشتراكية البروليتارية لا تقوم على اساس من العاطفية ، ولا على اساس مفهوم مجرد عن «العدالة» ، ولا

---

١ ـ الوهق : حبل ذو انشوطة لاقتناص الحيوانات البرية. «م»

على حب البروليتاريا ، وانما على اساس المبادىء العلمية التي أوردناها أعلاه .

لهذا يطلق على الاشتراكيـــة البروليتارية اســـم «الاشتراكية العلمية» ايضا .

منذ ١٨٧٧ قال انجلز :

«لو لم يكن لدينا من يقين ننطلق منه للايمـــان بانقلاب وشيك في النمط الراهن لتوزيع منتجـات العمل .. غير وعينا لجور نمـــط التوزيع هـذا وغير الاقتناع بانتصار الحق في نهاية المطاف ، لكنا الان في وضع محرج ، ولكان علينا ان ننتظر أمـدا طويلا من الزمن» .

والشيء الجوهري هنا ان :

«القوى الانتاجية المتولـدة عن نمط الانتـــاج الرأسمالي الحديث ، وكذلك نظام توزيع الخـيرات الذي خلقه هذا النمط ، قد دخلت في تناقـــض صارخ مع نمط الانتاج هذا عينه، الى حد يستوجب انقلابا في نمط الانتاج والتوزيع ينحي جانبا جميع الفوارق بين الطبقات ، هذا اذا كنا لا نريد ان يؤول المجتمع الحديث كله الى هلاك . انما الى هـــذه الواقعة المادية الملموسة ... لا في افكار هـــذا

المنظّر او ذاك من المنظّرين المكتبيين بصدد العدل والظلم ، يرتكز اليقين بانتصار الاشتراكية الحديثة» (انظر **ضد دهرينغ**) .

هذا لا يعني بالطبع اننا نستطيع ، من اللحظة التي تتحلل فيها الرأسمالية ، أن نقيم النظام الاشتراكي حينما نشاء . فمثل هذا التفكير لا يصدر الا عن الفوضويين وغيرهم من الايديولوجيين البورجوازيين الصغار . فالمثل الاعلى الاشتراكي ليس المثل الاعلى للطبقات كافة . انما هو المثل الاعلى للبروليتاريا فقط ، وليست جميع الطبقات معنية عناية مباشرة بتطبيقه ، بل البروليتاريا وحدها . وعليه ، ما دامت البروليتاريا لا تشكل سوى قسم ضئيل من المجتمع ، فان اقامة النظام الاشتراكي تبقى من المستحيلات . ان في طليعة الشروط اللازمة لتحقيق الاشتراكية انهيار الشكل القديم للانتاج والاتساع المتعاظم باستمرار لنطاق الانتاج الرأسمالي وتبلتر غالبية المجتمع . لكن هذا لا يكفي بعد. فقد يتبلتر القسم الاكبر من المجتمع، لكن من دون ان تتحقق الاشتراكية . اذ ان تحقيق الاشتراكية يستوجب ، فضلا عن ذلك ، ان تملك البروليتاريا وعيا طبقيا ، وأن ترص صفوفها ، وأن تعرف كيف تأخذ قضيتها بين يديها . وللوصول الى هذا كله ، لا بد مما يسمى بالحرية السياسية ، اي حرية الكلام والصحافة والاضراب والاجتماع ، وبكلمة واحدة حرية

الصراع الطبقي . والحال ان الحرية السياسية غير مؤمّنة في كل مكان بالتساوي . وعليه ، فان البروليتاريا لا يمكن ان تقف موقف اللامبالاة من الشروط التي ستضطر الى ان تخوض فيها نضالها : الاوتوقراطية الاقطاعية (روسيا)، او الملكية الدستورية (المانيا) ، او جمهورية البورجوازية الكبيرة (فرنسا) ، او الجمهورية الديموقراطية (التي تطالب بها الاشتراكية ـ الديموقراطية في روسيا) . وتتأمن الحرية السياسية على أفضل نحو وأكمله في جمهورية ديموقراطية ، وهذا بالطبع بقدر ما يمكن ان تتأمن في ظل النظام الرأسمالي . ولهذا يعمل جميع أنصار الاشتراكية البروليتارية بالضرورة في سبيل اقامة جمهورية ديموقراطية ، التي هي خير «جسر» للانتقال الى الاشتراكية .

لهذا يتألف البرنامج الماركسي ، في ظل الشروط الراهنة ، من قسمين : **برنامج الحد الاقصى** الذي يحدد الاشتراكية هدفا له ، **وبرنامج الحد الادنى** الذي يريد ان يشق طريقا الى الاشتراكية عبر الجمهورية الديموقراطية.

كيف ينبغي على البروليتاريا ان تعمل ، في اي طريق يتوجب عليها ان تنخرط لتحقق بوعي برنامجها ، فتطيح بالرأسمالية وتبني الاشتراكية ؟

الجواب واضح : لن تستطيع البروليتاريا وصولا الى الاشتراكية بتصالحها مع البورجوازية بل عليها قطعا ان تخوض النضال ، الذي ينبغي ان يكون نضالا طبقيا ، نضال

مجموع البروليتاريا ضد البورجوازية كلها. إما البورجوازية مع رأسماليتها ، وإما البروليتاريا مع اشتراكيتها ! ذلك هو الاساس الذي ينبغي ان يقوم عليه نشاط البروليتاريا، نضالها الطبقي .

بيد ان نضال البروليتاريا الطبقي يمكن ان يتلبس أشكالا شتى . فمن أشكال النضال الطبقي ، على سبيل المثال ، الاضراب ـ الجزئي او العام ، فهذا غير مهم. ومن أشكال النضال الطبقي، بلا ادنى ريب، المقاطعة والتخريب. ومن أشكال النضال الطبقي التظاهرات والمسيرات والمشاركة في المؤسسات التمثيلية ، الخ ، سواء أكانت برلمانات قومية ام اجهزة ادارية محلية . ان هذه لأشكال مختلفة لنضال طبقي واحد . ولن نناقش هنا الشكل النضالي الاهم بالنسبة الى البروليتاريا في نضالها الطبقي . بل لنلحظ فقط ان كل شكل من تلك الاشكال لازم لها بكل تأكيد ، في زمانه ومكانه ، كوسيلة لا غنى عنها لتطوير وعيها وتنظيمها . والحال ان الوعي والتنظيم لا يقلان لزوما للبروليتاريا عن الهواء الذي تستنشقه . غير انه يجدر بنا ان نلاحظ ايضا ان جميع هذه الاشكال النضالية ليست بالنسبة الى البروليتاريا الا وسائل **تحضيرية** ؛ وان ما من شكل منها ، اذا اخذ على حدة ، يشكل وسيلة **حاسمة** تمكن البروليتاريا من الاطاحة بالرأسمالية . فمن المستحيل الاطاحة بالرأسمالية عن طريق الاضراب العام وحده : فقصارى ما يستطيعه الاضرب العام ان يمهد بعض الشروط

لبلوغ ذلك الهدف . كما لا يمكن لاحد ان يتصور انه في مستطاع البروليتاريا ان تطيح بالرأسمالية عن طريق مشاركتها في البرلمان فحسب : فبمساعدة البرلمانية لا يمكن سوى تهيئة بعض الشروط للاطاحة بالرأسمالية .

اذن ، ما الوسيلة **الحاسمة** التي ستمكن البروليتاريا من الاطاحة بالنظام الرأسمالي ؟

هذه الوسيلة هي **الثورة الاشتراكية** .

الاضراب ، المقاطعة ، المشاركة البرلمانية ، التظاهرات، المسيرات ، ان جميع هذه الاشكال النضالية صالحة من حيث انها وسائل ترمي الى تحضير البروليتاريا وتنظيمها. لكن ما من وسيلة من هذه الوسائل كافية للقضاء على اللامساواة القائمة . بل ينبغي ان تتوحد جميع هذه الوسائل في وسيلة واحدة رئيسية وحاسمة ؛ ينبغي ان تهب البروليتاريا وأن تشن هجوما ماحقا على البورجوازية كي تدمر الرأسمالية تدميرا تاما . هذه الوسيلة الرئيسية والحاسمة هي الثورة الاشتراكية .

نخطىء لو اعتبرنا الثورة الاشتراكية هجوما مباغتا وقصير الاجل . بل هي صراع طويل النفَس ، تنتصر في ابانه الجماهير البروليتارية على البورجوازية وتستولي على مواقعها . وبما ان انتصار البروليتاريا سيتيح لها في الوقت نفسه ان تفرض هيمنتها على البورجوازية المقهورة، وبما ان هزيمة اي طبقة من الطبقتين **اثناء تصادمهما** تعني هيمنة الطبقة الاخرى ، فان اول طور في الثورة الاشتراكية

سيكون الهيمنة السياسية للبروليتاريا على البورجوازية.

دكتاتورية البروليتاريا **الاشتراكية**، استيلاء البروليتاريا على السلطة : هذا تحديدا ما ينبغي ان تبدأ به الثـــورة الاشتراكية .

هذا يعني انه **ما دامت البورجوازية لما تقهر بعد قهرا تاما** ، وما دامت ثرواتها لما تصادر بعد ، فعلى البروليتاريا ان تكون مجهزة ، لا محالة ، بقوة عسكرية ؛ عليها ، نظـير بروليتاريا باريس اثناء **العامية** ، ان تنظـم «حرسهـــا البروليتاري» الخاص بها كيما تتمكن من صد الهجمـــات المضادة للثورة التي ستشنها البورجوازية المحتضرة .

ان دكتاتورية البروليتاريا الاشتراكية ضرورية لها كيما تتمكن ، بهذه الوسيلة ، من نزع ملكية البورجوازيـــة ومصادرة الارض والغابات والمعامـل والمصانـــع والآلات والسكك الحديدية ، الخ .

نزع ملكية البورجوازية : هذا ما ينبغي ان تفضي اليه الثورة الاشتراكية .

تلك هي الوسيلة الرئيسية والحاسمة التي ستمكـــن البروليتاريا من الاطاحة بالنظام الرأسمالي الحالي .

كتب كارل ماركس منذ ١٨٤٧ يقول :

«... المرحلة الاولى في الثورة العمالية هـــي تحول البروليتاريا الى طبقة سائـدة ... وسوف تستخدم البروليتاريا هيمنتها السياسيـــة كيما

تنتزع رويدا رويدا الرأسمال كله من البورجوازية، وكيما تمركز جميع ادوات الانتاج بين يدي ... البروليتاريا المنظمة في شكل طبقة سائدة ...»
(انظر **البيان الشيوعي**) .

ذلك هو الطريق الذي يتوجب على البروليتاريا ان تسلكه اذا ارادت تحقيق الاشتراكية .

من هذا المبدأ العام تتفرع سائر المفاهيم الاخرى التكتيكية . والاضرابات والمقاطعة والمشاركة البرلمانية والمسيرات لا اهمية لها الا بمقدار ما تسهم في تنظيم البروليتاريا ، وفي تقوية منظماتها وتوسيعها بغية انجاز الثورة الاشتراكية .

***

الثورة الاشتراكية ضرورية اذن لتحقيق الاشتراكية ؛ والثورة الاشتراكية ينبغي ان تبدأ بدكتاتورية البروليتاريا، اي ينبغي على البروليتاريا ان تستولي على السلطة السياسية وأن تستخدمها لنزع ملكية البورجوازية .

لكن ينبغي ، برسم ذلك كله ، ان تكون البروليتاريا منظمة ، متراصة الصفوف ، موحدة ؛ ينبغي ان تنشأ منظمات بروليتارية قوية وأن تنمو وتكبر دونما انقطاع .

ما الاشكال التي ينبغي انتأخذها المنظمات البروليتارية؟

ان اكثر المنظمات الجماهيرية شيوعا وذيوعا هي النقابات والتعاونيات العمالية (وبخاصة التعاونيات الانتاجية والاستهلاكية) . وهدف النقابات هو النضال (بصورة رئيسية) ضد الرأسمال الصناعي ، سعيا وراء تحسين اوضاع العمال في اطار الرأسمالية الحالية . وهدف التعاونيات هو النضال (بصورة رئيسية) ضد الرأسمال التجاري من اجل زيادة استهلاك العمال عن طريق تخفيض أسعار السلع الضرورية ، وهذا بالطبع في اطار تلك الرأسمالية عينها . والنقابات والتعاونيات لازمة ، بلا جدال ، للبروليتاريا باعتبارها وسائل ترمي الى تنظيم الجمهور البروليتاري . وعليه ، يفترض بالبروليتاريا ، من وجهة نظر اشتراكية ماركس وانجلز البروليتارية ، ان تأخذ بذينك الشكلين من أشكال التنظيم ، وأن تدعمهما وتعززهما ، وهذا بالطبع بقدر ما تسمح به الشروط السياسية القائمة .

غير ان النقابات والتعاونيات لا يمكن ان تسد بحد ذاتها الحاجات التنظيمية للبروليتاريا التي تخوض غمار الصراع. وهذا لان المنظمات المذكورة لا تستطيع خروجا من اطار الرأسمالية ، اذ ان هدفها هو تحسين اوضاع العمال ضمن ذلك الاطار . لكن العمال ينشدون التحرر الكامل من العبودية الرأسمالية ؛ ينشدون تحطيم ذلك الاطار ، لا التقدم والارتقاء ضمن حدوده فقط . وعليه ، لا بد من تنظيم آخر يلم حوله شمل العناصر الواعية من العمال من

جميع المهن ، ويجعل من البروليتاريا طبقة واعية ، ويضع لنفسه هدفا رئيسيا هو تدمير النظام الرأسمالي، والتحضير للثورة الاشتراكية .

هذا التنظيم هو حـــزب البروليتاريا الاشتراكـــي الديموقراطي .

على هذا الحزب ان يكون حزبا طبقيا ، مستقلا مطلق الاستقلال عن سائر الاحزاب . وهذا لانه حزب طبقـــة البروليتاريين التي لا يمكن ان يكون تحررها الا مـــن صنعهم .

على هذا الحزب ان يكون حزبا ثوريا . وهذا لان تحرر العمال غير ممكن الا بالطريق الثوري ، طريق الثـــورة الاشتراكية .

على هذا الحزب ان يكون حزبا أمميا ، تفتح ابوابه لكل بروليتاري واعٍ . وهذا لان تحرر العمال ليس مسألـــة قومية ، بل اجتماعية ، ودلالته واحدة سواء أبالنسبة الى البروليتاري الجيورجي ام الى البروليتاري الروســـي وبروليتاريي الامم الاخرى .

يترتب على ذلك ، اذن ، انه كلما اتحد المزيد مـــن البروليتاريين من مختلف الامم بتلاحم اكبر ، وكلما انهارت الحدود القومية القائمة فيما بينهم، صار حزب البروليتاريا اقوى، وصار تنظيم البروليتاريا في طبقة غير قابلة للقسمة أسهل .

ينبغي اذن ، وبقدر الامكان ، تطبيق مبدأ المركزية في

تنظيمـــات البروليتاريـــا ، بالتعارض مـع التشتت الاتحادوي (١) ـ ســـواء أفي الحزب ام النقابـــات ام التعاونيات .

ومن المؤكد ايضا ان جميع هذه المنظمات يجب أن تقوم على اساس ديموقراطي ، وهذا بالطبع بقدر ما لا تتعارض مع ذلك الشروط السياسية وغيرها .

ما ينبغي ان تكون العلاقات بين الحـــزب من جانب ، والتعاونيات والنقابات من الجانب الآخر ؟ هل ينبغي ان تكون هذه الاخيرة منظمات مرتبطة بالحزب ام لاحزبية ؟ ان حل هذه المشكلة منوط بالمسألة المتعلقة بمعرفة اين وما الشروط التي تناضل فيها البروليتاريا . ولا مجال للشك، على كل حال ، في ان النقابات والتعاونيات تتطور على نحو

---

١ ـ نظرا الى ان الامبراطورية الروسية القيصرية كانت تتألف من قوميات عدة ، مع رجحان كفة الامة الروسية ، فقد ظهر تياران فـــي اوساط الطبقة العاملة آنئذ : تيار مركزي يدعو الى تنظيم موحد للعمال من جميع القوميات ، وتيار فيدرالي او اتحادوي يدعو الى اعتماد المبدأ القومي في التنظيم العمالي مع تشكيل روابط فيدرالية بين الاتحادات القومية . وكان البلاشفة من انصار التيار الاول ، وكانوا يدعون الـى وحدة العمال الروس والجيورجيين والاوكرانيين والارمن ، الخ ، فـي النضال من اجل اسقاط الحكم القيصري واقامة جمهورية ديموقراطية كمرحلة اساسية على الطريق الى الثورة الاشتراكية . «م»

افضل كلما قامت بينها وبين حزب البروليتاريا الاشتراكي علاقات صداقة أوثق. وهذا لان هذه المنظمات الاقتصادية، اذا لم تكن قريبة من حزب اشتراكي قوي ، تنحط وتتدهور في كثير من الاحيان ، وتنسى المصالح العامة الطبقية ، وتقدم المصالح المهنية الضيقة ، وتنزل بالتالي اذى كبيرا بالبروليتاريا . وعليه ، من الضروري ، في جميع الاحوال، تأمين النفوذ السياسي والايديولوجي للحزب على النقابات والتعاونيات . وانما بهذا الشرط وحده تغدو المنظمات المذكورة مدرسة للاشتراكية تنظم الفئات البروليتارية المبعثرة في طبقة واحدة .

هذه هي ، في خطوطها الكبرى ، سمات اشتراكية ماركس وانجلز البروليتارية .

***

ما رأي الفوضويين بالاشتراكية البروليتارية ؟

ينبغي ان نعلم بادىء ذي بدء ان الاشتراكية البروليتارية ليست مجرد مذهب فلسفي . فهي مذهب الجماهير البروليتارية ورايتها : فبروليتاريو العالم قاطبة يجلّونها و«ينحنون» أمامها . وعليه ، ليس ماركس وانجلز مجرد مؤسسين لـ «مدرسة» فلسفية محددة ، بل هما الزعيمان الحيان للحركة البروليتارية الحية التي تنمو وتكبر ويشتد ساعدها يوما بعد يوم . ومن يحارب هذا المذهب ، ومن

يتطلع الى «التطويح» به ، فلا بد ان يأخذ ذلك كله بعين الاعتبار كيلا يحطم رأسه بلا جدوى في صراع غير متكافىء. هذا ما يعلمه السادة الفوضويون علما اكيدا . ولذا يلجؤون في الصراع ضد ماركس وانجلز الى استخدام سلاح جديد في نوعه وغير مستعمل بالمرة .

ما هذا السلاح الجديد اذن ؟ أهو تحليل جديد للانتاج الرأسمالي ؟ أهو دحض لـ «**رأسمال**» ماركس ؟ كلا ، بكل تأكيد ! ام لعلهم ، وقد تسلحوا بـ «وقائع جديدة» وبمنهج «استقرائي» ، يدحضون «علميا» «انجيل» الاشتراكية ـ الديموقراطية : **البيان الشيوعي** الذي وضعه ماركس وانجلز ؟ مرة اخرى لا . اذن ما كنه تلك الوسيلة الخارقة للمألوف ؟

انها اتهام بـ «الانتحال الادبي» موجه الى ماركس وانجلز ! تصوروا ! اذ يبدو ان ماركس وانجلز لم يبتكرا شيئا من عندهما ، وان الاشتراكية العلمية محض اختلاق، وهذا لان **البيان الشيوعي** لماركس وانجلز قد «سرق» بقضه وقضيضه من «**بيان**» فكتور كونسيديران (١) . هذا شيء يبعث على الضحك ، بالطبع ، لكن «الزعيم الفذ» للفوضويين ، ف. تشركيزيشفلي ، يسرد على مسامعنا

---

١ ـ فيلسوف واقتصادي فرنسي من تلاميذ فورييه (١٨٠٨ ـ ١٨٩٣) . «م»

بامتداد كبير تلك القصة المضحكة ، كما ان المدعو بيـــير راموس ، «تلميذ» تشركيزيشفلي المعتوه ، وفوضوينـــا المحليين ، يجترون بحمية بالغة ذلك «الاكتشاف» ، ممـا يستأهل مشقة التوقف ، ولو لهنيهة من الزمن ، عند تلك «القصة» .

لنستمع اذن الى تشركيزيشفلي :

«ان كل القسم النظري من **البيان الشيوعي**، أعني الفصل الاول والثاني ... قد اقتبس من فكتـــور كونسيديران . وعليه ، ما **بيان** ماركس وانجلـــز توراة الديموقراطية الثورية الشرعية ــ سوى شرح أخرق **لبيان** فكتور كونسيديران. ولم يكتف ماركس وانجلز بوضع اليد على مضمون بيان كونسيديران، بل ... اقتبسا منه ايضا بعض العناوين» (انظـر مجموعة مقالات تشركيزيشفلي وراموس ولابريـولا باللغة الالمانية ، تحت عنـــوان **(أصل «البيـــان الشيوعي»)** ، ص ١٠) .

ويردد فوضوي آخر ، ب. راموس ، الكلام عينه :

«يمكننا الجزم بكل ثقة ان مؤلفهما الرئيســـي [**البيان الشيوعي** لماركس وانجلز] هو محض انتحال صفيق ، لكن بدلا من نسخ الاصل كلمة كلمة، مثلما

يفعل اللصوص المبتذلون ، سرقا فقط الافكـــار والنظريات ...» (المصدر نفسه ، ص ٤) .

ويردد اصحابنا فوضويو **نوباتي وموشا ، وخيما**، الخ، القول عينه .

اذن فالاشتراكية العلمية ، مع اسسها النظرية ، قـد «سرقت» ، على ما يبدو ، من **بيان** كونسيديران .

أثمة مبرر ما لترديد مثل هذا الكلام ؟

من هو فكتور كونسيديران ؟

من هو كارل ماركس ؟

كان فكتور كونسيديران ، المتوفي عام ١٨٩٣ ، تلميذ الطوبائي فورييه ، وقد لبث **طوبائيا** غير قابـــل للتأديب ، يرى «خلاص فرنسا» في **تصالح** الطبقات .

وكان كارل ماركس ، المتوفـــي عام ١٨٨٣ ، ماديا ، **عدوا للطوبائيين** ؛ وكان يرى ضمانة تحرر الانسانية فـــي تطور القوى الانتاجية وفي **صراع** الطبقات .

ما الشيء المشترك بينهما ؟

ان الاساس **النظري** للاشتراكية العلمية هو نظريـــة ماركس وانجلز المادية . ومن وجهة نظـــر هذه النظرية ، يتحدد تطور الحياة الاجتماعيـــة برمته بتطور القـــوى الانتاجية . فلئن أعقب النظامُ البورجوازي نظامَ نبـــلاء الارض والقنانة ، فـ «الخطأ» في ذلك يقع على عاتق تطـور القوى الانتاجية الذي حتّم ولادة النظام البورجوازي . او

كذلك : ان النظام البورجوازي الحالي سيعقبه لا محالة النظام الاشتراكي ؛ وسيحدث ذلك لان تطور القوى الانتاجية الحالية يقتضيه . ومن هنا كانت الضرورة التاريخيةالموجبة للاطاحة بالرأسمالية ولاقامة الاشتراكية. ومن هنا ايضا كانت الاطروحة الماركسية القائلة ان علينا ان نبحث عن مثلنا العليا في تاريخ تطور القوى الانتاجية ، لا في دماغ البشر .

هذا هو الاساس **النظري** لـ «**البيان الشيوعي**» لماركس وانجلز (انظر **البيان الشيوعي** ، الفصلين ١ و٢) .

فهل يقول فكتور كونسيديران في **البيان الديموقراطي** شيئا مشابها ؟ وهل يأخذ بوجهة النظر المادية ؟

اننا نؤكد ان لا تشركيزيشفلي ولا راموس ولا اصحابنا «النوباتيون» يستشهدون من **البيان الديموقراطي** لكونسيديران بشاهد **واحد** ، بكلمة **واحدة** من شأنها ان تبيح لنا الجزم بأن كونسيديران كان ماديا وانه كان يؤسس تطور الحياة الاجتماعية على تطور القوى الانتاجية . بل على العكس من ذلك ، فنحن نعلم جيدا ان كونسيديران معروف في تاريخ الاشتراكية كمثالي طوبائي (انظر بول لوي ، **تاريخ الاشتراكية الفرنسية**) .

ما الذي يحض اذن هؤلاء «النقاد» العجيبي الشأن على مثل هذا الهذر الباطل ؟ لماذا ينكبون على نقد ماركس وانجلز ، مع انهم عاجزون حتى عن التمييز بين المثالية والمادية ؟ أيفعلون ذلك لإضحاك الناس ؟...

ان الاساس **التكتيكي** للاشتراكية العلميـــة هو مذهب صراع الطبقات الذي لا يهدأ ولا يسكن ، لانه **خير** سلاح بين يدي البروليتاريا . فنضال البروليتاريا الطبقي هو السلاح الذي سيمكنها من الاستيلاء على السلطة السياسية ، ومن ثم نزع ملكية البورجوازية لاقامة الاشتراكية .

هذا هو الاساس **التكتيكي** للاشتراكية العلمية كمـــا يعرضه **بيان** ماركس وانجلز .

فهل في **البيان الديموقراطي** لكونسيديران شيء قريب من ذلك ؟ هل يعترف هذا **البيان** بالنضال الطبقي بوصفه افضل سلاح بين يدي البروليتاريا ؟

مثلما يتضح من مقالات تشركيزيشفلي وراموس (انظر المجموعة المشار اليها أعلاه) ، لا يتضمن **بيان** كونسيديران اي كلمة بهذا الخصوص ؛ ولا يأتي فيه ذكر لصراع الطبقات الا بوصفه واقعة تدعو للاسف . اما عن صراع الطبقـــات بوصفه وسيلة الاطاحة بالرأسمالية ، فهاكم ما يقولـــه كونسيديران في **بيانه** :

«**الرأسمال والعمل والموهبة** هي عناصر الانتاج الاساسية الثلاثة، مصادر الثروةالثلاثة، عجلاتالآلة الصناعية الثلاث ... والطبقات الثلاث التي تمثلها لها «مصالح مشتركة» ؛ ومهمتها هي تشغيل الآلات لصالـــح الرأسماليين ولصالـــح الشعب ... وأمامها ... ينتصب هدف عظيم : تنظيـم تشارك

الطبقات في ظل الوحدة القومية ...» (انظر كراسة كارل كاوتسكي : «**البيان الشيوعي**» **منحول**، ص ١٤ ، وفيه ورد هذا المقطع من **بيان كونسيديران**) .

يا كل الطبقات ، هيا الى الاتحاد ! هذا هو الشعار الذي يشهره فكتور كونسيديران في **بيانه الديموقراطي** .

ما الشيء المشترك بين تكتيك **تصالح** الطبقات هذا وبين تكتيك الصراع الطبقي الذي لا يسكن ولا يهدأ الذي يدعونا اليه ماركس وانجلز بحزم : **يا بروليناريي جميع البلدان ، اتحدوا ضد جميع الطبقات المعادية للبروليتاريا!**

واضح ان ليس ثمة من شيء مشترك !

لكن ما تلك السخافات التي يهذر بها أذن اولئك السادة تشركيزيشفلي ومعاونوهم المأفونون ! أيحسبوننا في عداد الاموات من الان ؟ أيعتقدون حقا اننا عاجزون عن تنفيسهم ؟

اخيرا ، ثمة نقطة اخرى لا تخلو من فائدة . فقد عاش فكتور كونسيديران حتى عام ١٨٩٣ . وقد نشر **بيانه الديموقراطي** في ١٨٤٣ . وفي نهاية ١٨٤٧ حرر ماركس وانجلز **بيانهما الشيوعي** . ومنذ ذلك الحين طبع هذا البيان وأعيد طبعه مرارا في جميع اللغات الاوروبية . والجميع يعلمون انه ابقى ذكرا دائما . ومع ذلك لم يذكر كونسيديران وأصدقاؤه **قط ، في اي مكان** ، واثناء حياة

ماركس وانجلز ، ان هذين الاخيرين قد سرقا الاشتراكية من **بيان** كونسيديران . أفليس ذلك غريبا ، ايها القارىء ؟

مـــا الذي يحض اذن هـؤلاء المحدثي النعمـــة «الاستقرائيين» ... عفوا ، هؤلاء «العلماء» ، على الهذر بأباطيلهم؟ باسم من يتكلمون؟ هل يعرفون **بيان** كونسيديران خيرا من مؤلفه ؟ ام يحسبون تخميننا ان فكتور كونسيديران وأنصاره لم يقرؤوا **البيان الشيوعي** ؟

لكن لندع هذا ... لندع هذا ، ما دام الفوضويـــون انفسهم لا يولون اهتماما جديا لحملة راموس ــ تشركيزيشفلي الدونكيشوتية : فالنهاية غير المجيدة التي تنتظر حملـــة سخيفة كهذه لا تسوغ ان يوليها الانسان قدرا كبيرا مـن الاهتمام ...

اذن فلنطرق النقد من صميمه .

***

يعاني الفوضويون من عاهة : فهم يحبـــون كثيرا ان «ينقدوا» احزاب خصومهم ، لكنهم لا يحملون انفسهـــم مشقة التعرف اليهم . وقد رأينا ان الفوضويين لجؤوا الى هذا المسلك حين «نقدوا» المنهج الجدلي والنظرية الماديـة للاشتراكيين ــ الديموقراطيين . (انظر الفصل ١ و٢) . وهم يعاودون اللجوء اليه حين يتناولون نظرية الاشتراكيين ــ الديموقراطيين في الاشتراكية العلمية .

لنتأمل ، على سبيل المثال ، الواقعة التالية . فمن لا يعلم ان ثمة خلافات مبدئية قائمة بين الاشتراكيين ـ الثوريين والاشتراكيين ـ الديموقراطيين ؟ من لا يعلم ان الاوائل ينكرون الماركسية ، النظرية المادية للماركسية ، منهجها الجدلي ، برنامجها ، صراع الطبقات ، بينما يجعل الاشتراكيون ـ الديموقراطيون كل عمادهم على الماركسية؟ ان كل من سمع ، ولو بأذن واحدة ، عن الجدال بين **ريفوليوسيونايا روسيا** ، الصحيفة الناطقة بلسان الاشتراكيين ـ الثوريين ، وبين **الايسكرا** ، الناطقة بلسان الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ، لا بد ان يدرك بجلاء وجود ذلك الخلاف المبدئي . لكن ماذا نقول عن «نقاد» لا يلمحون ذلك الخلاف ويعلنون ان الاشتراكيين ـ الثوريين والاشتراكيين ـ الديموقراطيين هم ، على حد سواء ، ماركسيون ؟ على هذا النحو يزعم الفوضويون ان **ريفوليوسيونايا روسيا والايسكرا** هما ، على حد سواء ، **صحيفتان ماركسيتان** . (انظر مجموعة الفوضويين : **الخبز والحرية** ، ص ٢٠٢) .

على هذا النحو «يعرف» الفوضويون مبادىء الاشتراكية ـ الديموقراطية !

واننا لنتبين بوضوح ، بعد ذلك ، مدى استناد «نقدهم العلمي» الى اساس ...

لنمحص الان هذا «النقد» .

«التهمة» الرئيسية التي يطلقها الفوضويون هي ان

لاشتراكيين ــ الديموقراطيين ليسوا في رأيهم **اشتراكيين** حقيقيين . يرددون ويكررون : ما انتم باشتراكيين ، بل انتم اعداء للاشتراكية .

يكتب كروبوتكين بهذا الخصوص :

«اننا نصل الى استنتاجات مغايرة لتلك التي يصل اليها معظم اقتصادي ... المدرسة الاشتراكية ــ الديموقراطية ... فنحن ... نذهب الى حد الشيوعية الفوضوية ، بينما يذهب معظم الاشتراكيين [لنقرأ: بمن فيهم الاشتراكيون ــ الديموقراطيون (ج.س)] الى حد رأسمالية الدولة والجماعوية» (انظر كروبوتكين ، **العلم الحديث والفوضوية** ، ص ٧٤ ــ ٧٥) .

ما كنه «رأسمالية الدولة» و«الجماعوية» اللتين ينادي بهما الاشتراكيون ــ الديموقراطيون ؟

هاكم ما كتبه كروبوتكين بهذا الخصوص :

«... يؤكد الاشتراكيون الالمان ان جميع الثروات المتراكمة يجب ان تجمع بين يدي الدولة التي ستتولى توزيعها على الروابط العمالية ، وستنظم الانتاج والتبادل ، وستشرف على حياة المجتمع وعمله» (انظر كروبوتكين ، **كلمات متمرد** ، ص ٦٤) .

وفي موضع آخر :

«يقترف الجماعويون ... في مشاريعهم ... خطأ مزدوجا. فهم يريدون الغاء النظام الرأسمالي، ويحافظون في الوقت نفسه على مؤسستين هما للنظام المذكور بمثابة اساسه : الحكومة التمثيلية والعمل المأجور» (انظر كروبوتكين : **الوصول الى الخبز** ، ص ١٤٨) . «معلوم ان الجماعوية ... تحتفظ .. بالعمل المأجور . وكل ما هنالك .. ان الحكومة التمثيلية .. تحل محل رب العمل ... ويحتفظ [ممثلو الحكومة] لانفسهم بحق استخدام فضل القيمة المتأتي من الانتاج لصالح الجميع . وفضلا عن ذلك ، يقيمون في هذا النظام تمييزا .. بين عمل العامل وعمل الانسان الذي درس : فعمل العامل اليدوي هو ، في نظر الجماعوي ، عمل بسيط ، بينما يتعاطى الفنان والمهندس والعالم ، الخ ، ما يسميه ماركس عملا معقدا ويحق لهم أجر اعلى» (المصدر نفسه ، ص ٥٢) .

وعليه ، سوف يتلقى العمال المنتجات التي هي ضرورية لهم ، لا حسب حاجاتهم ، وانما «بالتناسب مع الخدمات التي يؤدونها للمجتمع» (المصدر نفسه ، ص ١٥٧) .
وهذا ما يردده الفوضويون الجيورجيون ، لكن بمزيد

من الاعتداد والثقة بالنفس . ويتميز السيد باتون بوجه الخصوص بصلفه . يكتب قائلا :

«ما جماعوية الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ؟ ان الجماعوية ، او بتعبير أدق رأسمالية الدولة ، تقوم على اساس المبدأ التالي : على كل واحد ان يعمل بقدر ما يريد ، او بقدر ما تحدد له الدولة ، ليتلقى بالمقابل قيمة عمله في شكل بضائع ...

اذن ، فثمة حاجة هنا الى

«جمعية تشريعية ... وحاجة (ايضا) الى سلطة تنفيذية ، اي الى وزراء ، وشتى صنوف الاداريين ورجال الدرك والجواسيس ، وربما ايضا الى جيش . اذا زاد عدد المتذمرين عن الحد المعقول» (انظر **نوباتي** ، العدد ٥ ، ص ٦٨ و٦٩) .

هذه هي «التهمة» الاولى التي يوجهها السادة الفوضويون الى الاشتراكية ـ الديموقراطية .

***

من استدلالات الفوضويين هذه ، ينجم اذن أنه :
١ ـ بموجب رأي الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ،

يبدو ان المجتمع الاشتراكي مستحيل بدون حكومة تقوم ، بصفتها رب العمل الاول ، باستئجار العمال ، ويكون لها بالضرورة « وزراء .. ورجـــال درك وجواسيس » .

٢ ــ بموجب رأي الاشتراكيين ــ الديموقراطيين ، يبدو ان تقسيم العمل في المجتمع الاشتراكي الى عمـــل «صعب» وعمل «سهل» لن يُلغى ؛ كما ان مبدأ «لكل حسب حاجاته» لن يطبق فيه ، وسيجري اعتماد مبدأ آخر : «لكل حسب استحقاقه» .

الى هاتين النقطتين ترتكز «تهمة» الفوضويين ضـــد الاشتراكية ــ الديموقراطية .

فهل تقوم هذه «التهمة» التي يطلقها السادة الفوضويين على اساس ما من الصحة ؟

اننا نؤكد ان كل ما يزعمه الفوضويون في هذا الصدد هو اما ثمرة الطيش وإما هذر ساقط .

هاكم الوقائع .

كتب كارل ماركس منذ ١٨٤٦ يقول :

«سوف تَحِلّ الطبقة الكادحة ، في مجـــرى تطورها ، محل المجتمع المدني القديم متحدا يقصي جانبا الطبقات وتناحرها ، فلا يعود ثمة وجـــود لسلطة سياسية بحصر معنى الكلمة» (انظـر **بؤس الفلسفة**) .

وبعد عام واحد ، صاغ ماركس وانجلز الفكرة نفسها

في **البيان الشيوعي** (**البيان الشيوعي** ، الفصل ٢) .

وفي ١٨٧٧ كتب انجلز :

«الفعل الاول الذي تتبدى فيه الدولة فعلا كممثلة للمجتمع بأكمله ـ استملاك وسائل الانتاج باسم المجتمع ـ هو في الوقت نفسه فعلها الاخير كدولة . ويغدو تدخل سلطة الدولة في العلاقات الاجتماعية فائضا عن الحاجة في مضمار بعد آخر، وتأخذها بالطبع سنة من النوم ... ان الدولة لا «تلغى» ، بل تنطفىء» (**ضد دهرينغ**) .

وكتب انجلز في ١٨٨٤ ايضا :

«اذن فالدولة لم توجد في كل آن وزمان . بل وجدت مجتمعات استغنت عنها ، ولم يكن لديها اي فكرة عن الدولة او سلطة الدولة . وفي درجة معينة من التطور الاقتصادي ، استوجبت حكما انقسام المجتمع الى طبقات ، اضحت الدولة ... ضرورة . ونحن نقترب اليوم بخطى حثيثة من درجة من تطور الانتاج كف معها وجود هذه الطبقات عن ان يكون ضرورة وأمسى عائقا مباشرا امام الانتاج . ان الطبقات ستزول بمثل الحتمية التي ظهرت بها . وبزوال الطبقات ستزول لا محالة

الدولة . والمجتمع ، الذي سيعيد تنظيم الانتاج على اساس التشارك الحـــر والمتساوي للمنتجين ، سيحيل آلة الدولة الى المحل الذي تستأهله : الى متحف الآثار القديمة جنبا الى جنب مـــع دولاب الغزل والفأس البرونزية» (انظـــر **أصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة**) .

وفي عام ١٨٩١ عاد انجلز الى الفكرة نفسها (انظـــر المدخل الى **الحرب الاهلية في فرنسا**) .

ان المجتمع الاشتراكي كما نـــرى هو ، بموجب رأي الاشتراكيين ـ الديموقراطيين ، مجتمع لن يكون فيـــه مكان لما يسمى بالدولة ، للسلطة السياسية بوزرائهـــا ومحافظيها ودركها وشرطتها وجنودها . وستكون المرحلة الاخيرة من وجود الدولة حقبة الثورة الاشتراكية ، الحقبة التي ستستولي فيها البروليتاريا على سلطة الدولة وتنشىء حكومتها الخاصة (الدكتاتورية) ، كيما تلغي بصورة نهائية البورجوازية . لكن مع الغاء البورجوازية والغاء الطبقـات وتوطيد الاشتراكية ، لن تعود هناك حاجة لاي سلطـــة سياسية ـ وما يسمى بالدولة سيغدو من أوابد التاريخ.

اذن فـ«تهمة» الفوضويين ، المشار اليها اعلاه ، ما هي الا هذر لا اساس له البتة من الصحة .

اما فيما يتعلق بالبند الثاني من «التهمة» ، فيقـــول كارل ماركس ما يلي :

«في طور اعلى من المجتمع الشيوعي [اي مـــن

المجتمع الاشتراكي] ، يوم ستزول تبعية الافـــراد المهينة لتقسيم العمل ، ويزول معها التعارض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ؛ يوم لن يعود العمل مجرد وسيلة للعيش ، بل يضحي هو ذاته الحاجة الحيوية الاولى ؛ يوم تنمو وتعظم ، بالتوازي مـــع التطور المتعدد الوجوه للافراد، القوى الانتاجية هي الاخرى ... يومئذ فقط يمكن تجاوز الافق المحدود للحق البورجوازي بصورة نهائية ، ويغدو فـــي مستطاع المجتمع ان ينقش على رايته : «من كـل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته» (انظـــر **نقد برنامج غوتا**) .

ان الطور الاعلى من المجتمع الشيوعي [اي الاشتراكي] كما نرى هو ، بموجب رأي ماركس ، نظام يلتغي فيه تماما انقسام العمل الى عمل «صعب» وعمل «سهل» والتناقض بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، ويتعادل فيه العمل ، ويسود في المجتمع المبدأ الشيوعي حقا : من كل حسب طاقاته ، ولكل حسب حاجاته . فلا مكان هنا للعمـــل المأجور .

من الواضح ان هذه «التهمة» عارية هي الاخرى من كل اساس من الصحة .

والامر واحد من اثنين : اما ان السادة الفوضويين لم يقع لهم نظر قط على كتابات ماركس وانجلز التي أوردناها أعلاه ، فهم يمارسون «النقد» بطريق القيل والقال ، وإما

انهم يعرفون كتابات ماركس وانجلز المذكورة، لكنهم يكذبون قصدا وعمدا .

هذا هو مصير «التهمة» الاولى .

اما فحوى «تهمة» الفوضويين الثانية فهي انكار **الطابع الثوري** للاشتراكية ـ الديموقراطية . يقول لنا السادة الفوضويون : ما انتم بثوريين ، فأنتم تنكرون الثورة العنيفة ، وتريدون تأسيس الاشتراكية عن طريق البطاقات الانتخابية وحدها .

لنستمع اليهم :

«يحلو للاشتراكيين ـ الديموقراطيين .. ان يتغنوا بفكرة «الثورة» و«النضال الثوري» و«النضال والسلاح باليد» ... لكن لو سألتموهم ، ببساطة قلوبكم ، اسلحة، لمدوا اليكم باحتفاء ببطاقة انتخاب صغيرة للاقتراع في الانتخابات ... [انهم يؤكدون أن] التكتيك العقلاني الوحيد المناسب للثوريين هو البرلمانية المسالمة والشرعية ، مع قسم بالوفاء للرأسمالية وللسلطة القائمة ولمجمل النظام البورجوازي الموجود» (انظر **الخبز والحرية** ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣) .

يردد الفوضويون الجيورجيون الشيء ذاته ، لكن بمزيد من الاعتداد والثقة بالنفس بالطبع . لنرَ ، على

سبيل المثال ، الى باتون . انه يكتب :

«تعلن الاشتراكية ـ الديموقراطية كلها ... بصريح العبارة ان النضال بواسطة البندقية والاسلحة منهج بورجوازي للقيام بالثورة ، وان الاحزاب لا تستطيع ان تصل الى السلطة الا عن طريق البطاقة الانتخابية والانتخابات العامة ، ثم ، بفضل الغالبية البرلمانية والقوانين ، ان تحوّل المجتمع» (انظر **الاستيلاء على سلطة الدولة** ، ص ٣ و٤) .

هذا ما يقوله الفوضويون عن الماركسيين .

فهل تقوم هذه «التهمة» على اساس ما من الصحة ؟

اننا نؤكد ان الفوضويين يدللون ، هذه المرة ايضا ، على جهلهم وولعهم بالثرثرة والشائعات .

هاكم الوقائع :

كتب ماركس وانجلز منذ نهاية ١٨٤٧ :

«يترفع الشيوعيون عن اخفاء آرائهم ومقاصدهم، ويعلنون صراحة ان اهدافهم لا يمكن بلوغها وتحقيقها الا بدك كل النظام الاجتماعي القائم بالعنف. فلترتعد الطبقات الحاكمة امام الثورة الشيوعية ! فليس للبروليتاريا ما تخسره فيها غير قيودها، لتربح عالما بأسره . يا عمال العالم ، اتحدوا !» (انظر **البيان الشيوعي** . علما بأن بعض الطبعات الشرعية حذفت عدة كلمات في الترجمة) .

في عام ١٨٥٠ ، وبانتظار حدوث ثورة جديدة في المانيا ، كتب كارل ماركس الى الرفاق الالمان عصرئذ :

«لا يجوز لهم بحال من الاحوال تسليم الاسلحة والذخائر .. وعلى العمال .. ان ينظموا انفسهم في حرس بروليتاري مستقل ، على رأسه قادة وهيئة أركان عامة ... [هذا] ما ينبغي ان يضعوه نصب أعينهم اثناء الثورة القادمة وبعدها» (انظر **محاكمة كولونيا** ـ خطاب ماركس الى الشيوعيين).

وفي ١٨٥١ ـ ١٨٥٢ كتب كارل ماركس وفريدريك انجلز :

«ما ان تبدأ الثورة ، حتى يتوجب العمل بعزم فائق والانتقال الى الهجوم . ان الدفاع يعني موت كل عصيان مسلح... ينبغي مهاجمة العدو مباغتة، وذلك ما دامت قواه مشتتة بعد ؛ وينبغي احراز نجاحات جديدة كل يوم ، ولو كانت زهيدة ... ينبغي ارغام العدو على التراجع قبل ان يتمكن من حشد قواه ضدنا . بكلمة واحدة ، اعملوا حسب كلمة دانتون ، اعظم استاذ نعرفه في التكتيك الثوري : الجرأة ، المزيد من الجرأة ، والمزيد من الجرأة ، ودوما الجرأة» . (**الثورة والثورة المضادة في المانيا**) .

نحن لا نعتقد ان بيت القصيد هنا «البطاقات الانتخابية» وحدها دون غيرها .

تذكروا اخيرا تاريخ عامية باريس ؛ تذكروا الموقف المسالم للعامية حين اكتفت بنصر باريس ورفضت ان تهاجم فرساي ، عرين الثورة المضادة . ماذا قال ماركس يومئذ ، في رأيكم ؟ هل دعا الباريسيين الى الانتخابات ؟ هل وافق على لامبالاة العمال الباريسيين (كانت باريس كلها بين أيدي العمال) ؟ هل وافق على موقفهم الكريم من الفرساويين المقهورين ؟ أصغوا الى ماركس :

«الا اية مرونة ، وأية مبادهة تاريخية ، وأية قدرة على التضحية يتمتع بها هؤلاء الباريسيون ! بعد جوع ودمار داما ستة اشهر ... ثاروا على الحراب البروسية ... ان التاريخ لا يعرف بعد نظيرا لمثل هذه العظمة ! لكن اذا ما سقطوا ، فلن يكون من سبب لسقوطهم سوى «كرمهم» ! لقد كان عليهم ان يزحفوا للحال على فرساي ، بعد ان هرب من باريس فينوا اولا ، ثم العناصر الرجعية في الحرس القومي الباريسي . لكن وسوسة ضميرهم جعلتهم يتركون السانحة تفلت من أيديهم . فهم ما كانوا يريدون ان يبدؤوا الحرب الاهلية ، كما لو ان ذلك المسخ الخبيث تيير لم يبدأها من قبلهم حين حاول تجريد باريس من سلاحها ،» **(رسائل الى كوجلمان)** .

هكذا كان يفكر ويتصرف ماركس وفريدريك انجلز .
هكذا يفكر ويتصرف الاشتراكيون ـ الديموقراطيون .
ومع ذلك يردد الفوضويون : ان ما يستأثر باهتمام ماركس وانجلز ، وكذلك باهتمام تلامذتهما ، هو فقط البطاقات الانتخابية ؛ فهم لا يقبلون بالعمل الثوري العنيف!
وهذه «التهمة» هي بدورها ، كما نرى ، هذر وثرثرة ينمان عن جهل الفوضويين بجوهر الماركسية .
هذا هو مصير «التهمة» الثانية .

تتمثل «التهمة» الثالثة التي يوجهها الفوضويون في انكار الطابع الشعبي للاشتراكية ـ الديموقراطية وفي تصوير الاشتراكيين ـ الديموقراطيين بصورة البيروقراطيين ؛ ويزعم الفوضويون ان الخطة الاشتراكية ـ الديموقراطية عن دكتاتورية البروليتاريا تعني موت الثورة؛ وأنه لما كان الاشتراكيون ـ الديموقراطيون يؤيدون مثل تلك الدكتاتورية فانهم يريدون في الواقع ان يفرضوا لا دكتاتورية البروليتاريا وانما دكتاتوريتهم الخاصة على البروليتاريا .
لنستمع الى السيد كروبوتكين :

«لقد اصدرنا ، نحن الفوضويين ، حكما نهائيا بإدانة الدكتاتورية ... نحن نعلم ان كل دكتاتورية، مهما تكن نياتها شريفة ، تقود الى موت الثورة .

نحن نعلم ... ان فكرة الدكتاتورية ليست سوى نتاج ضار الاثر للصنمية الحكومية التي ... سعت دوما وأبدا الى تأبيد العبودية» (راجع كروبوتكين : **كلمات متمرد** ، ص ١٣١) .

والاشتراكيون ـ الديموقراطيون لا يقبلون بالدكتاتورية الثورية فحسب ، بل هم ايضا :

«أنصار للدكتاتورية على البروليتاريا ... والعمال لا يستأثرون باهتمامهم الا بقدر ما يؤلفون جيشا منضبطا بين أيديهم ... ان الاشتراكية ـ الديموقراطية تريد استخدام البروليتاريا للاستيلاء على جهاز الدولة» (**الخبز والحرية** ، ص ٦٢ و٦٣).

ويردد الفوضويون الجيورجيون الشيء ذاته :

«ان دكتاتورية البروليتاريا ، بحق معنى الكلمة، مستحيلة مطلق الاستحالة ، وذلك ما دام أنصار الدكتاتورية أنصارا للدولة ، ودكتاتوريتهم لن تعني البتة حرية العمل لمجمل البروليتاريا ، وانما اقامة نفس تلك السلطة التمثيلية الموجودة اليوم على رأس المجتمع» (باتون ، **الاستيلاء على سلطة الدولة** ، ص ٤٥) .

ان الاشتراكيين ـ الديموقراطيين يؤيدون الدكتاتورية، لا للمساعدة على انعتاق البروليتاريا ، وانما ... «**الإرساء**

أسس عبودية جديدة عن طريق هيمنتهم» (انظر **نوباتي** ، العدد ١ ، ص ٥) .

هذه هي ثالثة «تهم» السادة الفوضويين .

ولا حاجة البتة الى كبير جهد لنزع القناع عن فريـــة الفوضويين الجديدة هذه ، الرامية الى تضليل القارىء .

لن نعكف هنا على تمحيص تصور كروبوتكين المغلوط من جذوره ، والقائل بأن كل دكتاتورية تعني موت الثورة. فسوف نعود الى هـذا الموضوع حين سنحلل تكتيـــك الفوضويين . اما الان فقصدنا الاوحد ان نتكلم عن تلـــك «التهمة» .

منذ أواخر ١٨٤٧ كان كارل ماركس وفريدريك انجلز يقولان انه على البروليتاريا ، حتى تشيد الاشتراكية ، أن تستولي على الدكتاتورية السياسية حتى تدحر ، بواسطة هذه الدكتاتورية ، الهجمات المضادة للثورة التي ستشنها البورجوازية وحتى تنتزع منها وسائل الانتاج . وأضافـا قولهما ان هذه الدكتاتورية لا يجوز ان تكون دكتاتوريـــة بعض اشخاص ، وانما دكتاتورية البروليتاريا بمجموعها بما هي طبقة :

«سوف تستخدم البروليتاريا الهيمنة السياسية لتنتزع شيئـــا فشيئا الرأسمال بأسره مـــن البورجوازية ، ولتمركز جميع ادوات الانتاج فـــي يدي ... البروليتاريا المنظمة في طبقة سائـدة» (انظر **البيان الشيوعي**) .

بعبارة اخرى ، ستكون دكتاتورية البروليتاريا الدكتاتورية التي ستمارسها طبقة البروليتاريا بأسرها على البورجوازية ، لا سيطرة بعض الاشخاص على البروليتاريا.

وفيما بعد ردد ماركس وانجلز الفكرة نفسها في جميع مؤلفاتهما تقريبا ، في **١٨ برومير لوي بونابرت** ، وفي **الصراعات الطبقية في فرنسا** ، وفي **الحرب الاهلية في فرنسا** ، وفي **الثورة والثورة المضادة في المانيا** ، وفي **ضد دهرينغ** ، وفي كتابات اخرى كذلك .

لكن ليس هذا كل شيء . فحتى نفهم كيف كان ماركس وانجلز يتصوران دكتاتورية البروليتاريا ، والى اي حد كانا يعتبران هذه الدكتاتورية قابلة للتحقيق ، من المفيد ان نطلع على حكمهما على عامية باريس . والواقع ان دكتاتورية البروليتاريا تقابل بالتجريح لا من قبل الفوضويين فحسب، بل ايضا من قبل صغار بورجوازيي المدن ــ بمن فيهم القصابون وباعة الخمر بمختلف ضروبهم ــ اي من قبل اولئك الذين كان ماركس وانجلز يدعوانهم بالادعياء الجهلاء. اليكم ما يقوله انجلز عن دكتاتورية البروليتاريا ، مخاطبا اولئك الادعياء الجهلاء :

«لقد استحوذ مؤخرا على الدعي الجاهل الالماني رعب شافٍ حين سمع بعبارة **دكتاتورية البروليتاريا** . حسنا ايها السادة ، هل تريدون ان تعرفوا ما كنه هذه الدكتاتورية ؟ انظروا الى عامية باريس . فقد كانت هي دكتاتورية البروليتاريا»

(انظر **الحرب الاهلية في فرنسا** ـ مقدمة فريدريك انجلز) .

كان انجلز ، كما نرى ، يتصور دكتاتورية البروليتاريا في صورة عامية باريس .

ومن نافل القول ان التعرف اليها واجب على من يريد ان يعلم ما هي دكتاتورية البروليتاريا في نظر الماركسيين. لننظر بدورنا الى عامية باريس . فاذا اتضح انها كانت حقا دكتاتورية بعض أفراد على البروليتاريا، فلتسقط الماركسية في هذه الحال ، ولتسقط دكتاتورية البروليتاريا ! لكن اذا لاحظنا انها كانت فعلا دكتاتورية للبروليتاريا على البورجوازية ، فعندئذ ... عندئذ سنضحك ملء قلوبنا من المهذارين الفوضويين الذين لا حيلة لهم ، في صراعهم ضد الماركسيين ، سوى ابتكار الهذر والثرثرة .

ينطوي تاريخ عامية باريس على مرحلتين : المرحلة الاولى هي تلك التي كانت «اللجنة المركزية» الشهيرة تتولى فيها تسيير الامور في باريس ، والمرحلة الثانية هي تلك التي انتقل فيها تسيير الامور، بعد انتهاء أجل السلطات المطلقة الممنوحة لـ«اللجنة المركزية» ، الى العامية التي كان قد جرى ابان ذلك انتخابها . من كانت «اللجنة المركزية»، ممن كانت تتألف ؟ ان بين أيدينا **التاريخ الشعبي والبرلماني لعامية باريس** الذي يجيب باختصار ، كما يقول مؤلفه آرثر آرنولد ، على ذلك السؤال . فقد كان الصراع قد بدأ ليس الا ، حين بادر ... ٣٠٠ عامل باريسي ، منظمين

في فصائل وكتائب ، الى اختيـــار مندوبين من بينهم . هكذا تشكلت «اللجنة المركزية» .

يقول آرنولد :

«ان جميع هؤلاء المواطنين [اعضاء **اللجنـــة المركزية**] ، الذين جرى انتخابهم من قبل فصائلهم او من قبل كتائبهم ، ما كانـوا معروفين تقريبا الا من قبل الجماعة الصغيرة التي انتدبتهم . من كان هؤلاء الرجال ، ما كانت قيمتهم ، ماذا كانـــوا سيفعلون ؟... كانت حكومة مغفلة ، مؤلفة مـــن بسطاء العمال او من صغار المستخدمين ممن لـم تتخط اسماء ثلاثة ارباعهـــم دائرة شارعهـم او مشغلهم ... لقد انتهكت التقاليد . حدث شـــيء لا متوقع في العالم . لم يكن اي عضو من الطبقات الحاكمة حاضرا . اندلعت **ثورة** لا يمثلها لا **محام** ، ولا **نائب** ، ولا **صحفي** ، ولا **جنرال** . وانما ســـد مسدهم **عامل من عمال مناجم** كروزو ، **عامـــل تجليد ، طاهٍ** ، الخ ، الخ ...» (انظر **التاريـــخ الشعبي والبرلماني لعامية باريس** ، ص ١٠٧) .

ويتابع آرثر آرنولد :

«اننا [هكذا كان يصرح اعضاء اللجنة المركزيـة] الاجهزة المغفلـة ، الادوات المتواضعـــة للشعب المهاجَم ... ونحـن ، بصفتنا خدامـــا للارادة

الشعبية ، موجودون هنا كيما نكون لها بمثابة الصدى ، وكيما نكتب لها الظفر . الشعب يريد **العامية** ، وسوف نبقى حتى نجري انتخابات **العامية**» . لا شيء اكثر ، ولا شيء أقل . هؤلاء الدكتاتوريون لا يضعون انفسهم لا فوق الجمهور ولا خارجه . والمرء يحس انهم يعيشون مع الجمهور ، فيه ، به ، يستشيرونه في كل لحظة ، يصغون اليه ويرددون ما سمعوه ، متكفلين فقط بأن يترجموا الى بضع عبارات واضحة مقتضبة ... قرارات ثلاثمئة ألف انسان» (المصدر نفسه) .

هكذا كان مسلك عامية باريس في المرحلة الاولى من وجودها .

هذا ما كانته عامية باريس .

هذه هي دكتاتورية البروليتاريا .

لننتقل الان الى المرحلة الثانية من **العامية**، المرحلة التي خلف فيها «مجلسها العام» «لجنتها المركزية» . في معرض الكلام عن هاتين المرحلتين ، اللتين دامتا شهرين ، يهتف آرنولد ، وملؤه الحماسة ، بأنها كانت دكتاتورية حقيقية للشعب . لنستمع اليه :

«من هنا ، من هذا المشهد العظيم الذي قدمه هذا الشعب على امتداد شهرين ، سنستمد ما فيه الكفاية من القوة والامل للتطلع الى المستقبل بلا تهيب ... فإبان ذينك الشهرين وجدت دكتاتورية

حقيقية في باريس ، دكتاتورية هي أكمل الدكتاتوريات وأقلها اثارة للخلاف ... لا دكتاتورية رجل واحد، بل **الشعب** ـ سيد الموقف الاوحد... وقد دامت هذه الدكتاتورية اكثر من شهرين، من ١٨ آذار الى٢٢ ايار(١٨٧١)، بلا انقطاع... كان الشعب **السيد** ، والسيد الاوحد ، لان **العامية** لم تكن [في ذاتها] سوى سلطة معنوية ولم يكن لها من قوة مادية سوى القبول العام بها ... من قبل المواطنين؛ وقد صار (الشعب) بنفسه شرطي نفسه وقاضيها ...» (المصدر نفسه) .

بهذه الصفات وصف آرثر آرنولد ، عضو **العامية** الذي كانت له مشاركة فعالة في معاركها الالتحامية ، عامية باريس .

وبهذه الصفات يصفها ايضا عضو آخر من اعضائها ، شارك فيها هو الآخر بفعالية ، **ليساغاري** (انظر مؤلفه **تاريخ عامية باريس)** .

الشعب بوصفه «السيد الاوحد» ، «لا دكتاتورية رجل واحد ، بل الشعب» ، هذا ما كانته عامية باريس .

«انظروا الى عامية باريس . لقد كانت دكتاتورية البروليتاريا !» : هكذا هتف انجلز برسم الادعياء الجهلاء.

ذلكم هو كنه دكتاتورية البروليتاريا في نظر ماركس وانجلز .

ان السادة الفوضويين ، كما نرى ، يعرفون دكتاتورية

البروليتاريا ، وعامية باريس ، والماركسية التي «ينقدونها» بلا انقطاع ، كما نعرف ، انت وأنا ، ايها القارىء العزيز، اللغة الصينية .

جلي للعيان ان هناك نوعين من الدكتاتورية . فهناك دكتاتورية الاقلية ، دكتاتورية جماعة صغيرة ، دكتاتورية أضراب تريبوف واغناتييف الموجهة ضد الشعب. على رأس مثل هذه الدكتاتورية تقف عادة بطانة من الحكام تتخذ قراراتها سرا وتخنق غالبية الشعب في ربقة أنشوطة .

ان الماركسيين اعداء مثل هذه الدكتاتورية، ويكافحونها بعناد ونكران للذات اعظم بكثير مما يفعل زعماقونا الفوضويون.

وهناك دكتاتورية من نوع آخر ، دكتاتورية الغالبية البروليتارية ، دكتاتورية الجماهير . وهي موجهة ضد البورجوازية ، ضد الاقلية . والجماهير هي التي تقف هنا على رأس الدكتاتورية . ولا مكان هنا لبطانة من الحكام ، ولا لقرارات سرية . كل شيء يجري هنا في وضح النهار، في وسط الشارع ، في المهرجانات الخطابية ــ وهذا لان هذه الدكتاتورية هي دكتاتورية شارع ، دكتاتورية جماهير، دكتاتورية موجهة ضد جميع المضطهِدين .

هذه الدكتاتورية يؤيدها الماركسيون «بملء قلوبهم» ــ وهذا لان دكتاتورية كهذه هي بمثابة البداية العظيمة للثورة الاشتراكية الكبيرة .

لقد خلط السادة الفوضويون بين تينك الدكتاتوريتين اللتين تنفي كل واحدة منهما الاخرى ؛ ولهذا نجدهم في موقف مضحك : فهم لا يحاربون الماركسية ، بل تخيلاتهم

بالذات ؛ لا يقاتلون ضد ماركس وانجلز ، بل ضد طواحين هواء ، كما فعل في ما غبر من الايام دون كيشوت ، الطيب الذكر ...

ذلك هو مصير «التهمة» الثالثة .

٥٣٢ / ٣٠٠٠

سلسلة التراث الماركسي

١ ـ ماركس ـ انجلز	البيان الشيوعي
٢ ـ فردريك انجلز	تعاليم الماركسية
٣ ـ كولونتاي	تحرر المرأة العاملة
٤ ـ لي ذوان	اللينينية والثورة الفيتنامية
٥ ـ جيمس كونولي	احاديث المصنع
٦ ـ زينوفييف	اطروحات حول المسألة القومية والثورة الصينية
٧ ـ بليخانوف	محاضرات في فلسفة التاريخ
٨ ـ ماركس ـ انجلز	في الحركة النقابية
٩ ـ اوليانوفسكي	الفلاحون وحركة التحرر
١٠ ـ لينين	نقد المعارضة العمالية
١١ ـ بوخارين	الف باء الشيوعية
١٢ ـ تروتسكي	المسألة القومية
١٣ ـ ج . ستالين	الماركسية والمسألة الفلاحية
١٤ ـ لينين	الشيوعية والشرق
١٥ ـ كاوتسكي	طريق السلطة
١٦ ـ جورج بوليتزر	فلسفة الانوار

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٢٥٠ ق. ل.